الحصون الحميدية

للمحافظة على العقائد الإسلامية

للسيد حسين أفندي

يطلب
من المعهد الإسلامي السلفي

MAKTABAH KITAB NUSANTARA

DILARANG MEMPERJUALBELIKAN PDF INI

عبد الله

الحصون الحميدية

للمحافظة على العقائد الإسلامية

للسيد حسين أفندي

طبع على نفقة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا محمدٍ أشرفِ المُرسَلِين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعدَ فيقولُ الفقيرُ الحقيرُ الراجي من اللهِ غفرانَ الوِزْرِ عَبْدُه (حُسَين بن محمد الجسر الطَّرابلسى) عفا الله عنه : إنه من المعلوم المُسَلَّم عند كل مُطلِع على تاريخ الأمة المحمّدية أنّ إيمانَ أهل الإسلام بجميع ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام كان فى عصره (عصر السعادة) مستنداً للقرآنِ الشريفِ ، وحديثِ الرسول المنيف ، مؤيَّداً بأدلة العقل السليم الناهِج فى المَنهج القويم ، خالصاً من شوائب الشبه والأهواء ، سليماً من غوائل الأغاليط واختلافِ الآراء ، فلذلك كانت ثمراته يانعة ، وزواهره ساطعة ، فكنتَ ترى أفرادَ الأمةِ محافظين على إقامةِ العبادات ، وانتظامِ شأنِ المعاملات ، ممتثلين للأوامر ، منتهين عن المناكر ، متحلين بأخلاقِ الدين الحسنة ، وآدابه المستحسنة ، لأنه متى طاب الأصل طابت الفروع ، وعذوبة الماء تنشأ عن صفاء الينبوع .

وقد دام ذلك فى المسلمين ، وجماعة الموحِّدين ، إلى أن أمر أحد الخلفاء العبّاسيين بترجمة كُتبِ الفلاسفةِ المتقدِّمين إلى اللغةِ العربية وانتشرت تلك التراجمُ بين الأمةِ الإسلاميَّة ، ونشأ من

الاطلاع عليها شبهة زعزعت إيمان ضعفاء المسلمين ، ومن ليس عندهم تمكن فى معرفة أصول دين سيد المرسلين . فانبرى عند ذلك علماء الأمة المحمدية وأئمتها الأعلام ، المتمسكون بما كان عليه المصطفى وأصحابه عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، يردون القلوب الشوارد ، ويدفعون تلك الشبه بما يرغم أنف كل معاند حتى رأيت كتبهم مزدانة بالدلائل القطعية ، على إثبات العقائد الدينية ، وصادعة بردود الشبه التى كانت على الضعفاء أعظم بلية ، فحفظ الله تعالى بتصنيعهم إيمان الأمة من الغوائل ، وحصنه من صدمات الشبه بأقوى الدلائل .

وقد استمر الحال على هذا المنوال ، إلى أن ظهرت فى هذه العصور الأخيرة الفلسفة الحديثة ، التى خالف فيها أربابها طريقة أسلافهم الفلاسفة المتقدمين ، واعتمدوا فى ذلك أصولا فى الرياضيات والطبيعيات لم تكن تعرف قبل هذا الحين ، وانتشرت هذه الفلسفة بواسطة المطبوعات بين أهل الإسلام ، ونشأت عنها شبه لم تكن معهودة فى غابر الأعوام ، وصار كل عاقل يخشى على إيمان الضعفاء من غوائل هذه الشبه الجديدة ، فتجدد الاحتياج إلى استئناف الردود السديدة ، وتأليف كتب فى حفظ الإيمان مفيدة .

ولما من الله تعالى على أهل هذا العصر بخليفة رفعت لجلالته ألوية الشرف والفخر . ونشرت لحضرته رايات العز والنصر ، وسار فى إصلاح الرعية سيرا عجيبا ، وسلك فى نجاح البرايا سلوكا

غريباً ، وقام على أقدام الإقدام ، ونشر منشور فضله على عموم الأنام ، وصرف أوقاته لنفع الخاص والعام ، وبسط بساط المراحم لكافة تبعته ، وأفاض فيوض المكارم على جميع صنوف رعيته ، ألا وهو ثانى القمرين ، ومحيي سنة سيد الكونين ، ناصر الشريعة الغراء ، ورافع لواء المحجة البيضاء ، سلطان سلاطين العرب والعجم ، ومعيد ما اندرس من آثار سالف الأمم ، الخليفة الأعظم والخاقان الأفخم ، السلطان ابن السلطان ، السلطان الغازى (عبد الحميد) خان ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان نصره الله تعالى وأدامه ، ورفع على ذروة الخافقين بالفتح المبين أعلامه ، وجه عنايته — حفظه الله تعالى — إلى أحوال العلوم والمعارف ، وألفت الطرف إلى شئون الفضائل والعوارف ، فرآها بلسان الحال تشكو لجلالته ، وتطلب إحياءها بلمحة من أنظار دولته ، فرثى لحالها ، وأصغى لمقالها ، وسمع دعواها ، ولبى شكواها ، فشيد لها المكاتب والمدارس ، وأحضر لها من الكتب والرسائل أنفس النفائس ، وساق إليها المعلمين من أقطار الأرض ، وأمر بإحياء دارسها ، وإطاعة أمره فرض وأى فرض ؟ فقرى فيها من العلوم والفنون ما يسر القلب المحزون ولم تزل المعارف تنتشر فى البلاد ، وتتضاعف ثمراتها وتزداد ، حتى استنقذت شبان الرعية من ظلمات الجهل ، ونورت أفكارهم بأنوار العرفان والفضل ، وقد علت بذلك همتهم وازدادت بحسن معارفهم قيمتهم .

إلا أن ما أحدثته الفلسفة الحديثة التى نقلت إلينا على متون المطبوعات ، من غوائل الشبهات ، قد يخشى منه زيغ عقائد شبان

ضعفاء الأمة ووقوعهم فى الضلالات ، فكان المطابق لرضائه العالى . والموافق لرأى جلالته السامى ، تأليف كتاب مختصر يشتمل على تقرير العقائد الإسلامية ببراهينها العقلية . ويتكفل بدفع تلك الشبه التى حدثت من الفلسفة الجديدة وسواها من الأغاليط المضرة بالعقيدة ، مع بيان ما يقضى بجلب قلوب شبان المسلمين لمحبة الدين المبين . والتعشق لحضرة سيدنا محمد سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، عسى أن تعم قراءته فى جميع المكاتب السلطانية ، والمدارس الشاهانية ، محافظة على عقائد تلامذتها من أهل الملة الإسلامية ، والشريعة المحمدية ، فوفقت لهذه الخدمة الشريفة التى ينتج عنها — إن شاء الله تعالى — بأنظار خليفة رسول الله الخير العظيم لعموم الأمة الإسلامية ، وتكون حسنة من حسنات شوكته — حفظه الله — وغرة من غرر عصره الحميدى السعيد المؤيد بتوفيق الله تعالى .

فجاء كتاباً يسر قلوب المؤمنين ، ويقر أعين الموحدين ، مشتملاً على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، كل باب منها يشتمل على فصول : تحتوى على ما تمس الحاجة إليه من مهمات الأصول ، وعلى خاتمة : تشتمل على بيان وجوب الخلافة فى الدين المحمدى المبين ، وما لها من حقوق الإطاعة على عموم المسلمين ، وهو حقيق بأن يسمى (الحصون الحميدية ، للمحافظة على العقائد الإسلامية) فنتوسل إلى الله تعالى بروحانية حبيبه الأعظم ، صلى الله عليه وسلم ، أن يؤيد عرش الخلافة العظمى بطول عمر وحياة مولانا الخليفة الأعظم ، وبحفظ ذاته الكريمة ، ويؤيده بالنصر المكين ، والفتح المبين ، اللهم آمين .

مقدمة

تشتمل على أربعة أبحاث

البحث الأول

في تعريف علم التوحيد، وثمرته، وفضله وافتراض تعلمه على كل مكلف

اعلم أن علم التوحيد هو علم يبحث فيه عن إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية. وثمرته هي معرفة صفات الله تعالى ورسله بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية. وهو أصل العلوم الدينية وأفضلها، لكونه متعلقاً بذات الله تعالى، وذات رسله عليهم الصلاة والسلام، وشرف العلوم بشرف المعلوم. وقد جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن سيدنا آدم إلى سيدنا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، ولكن لما كان الشيخ أبو منصور الماتريدي والشيخ أبو الحسن الأشعري أشهر من دون كتب هذا العلم، وأقام الأدلة والبراهين على رد ما قاله المخالفون شاع أنهما الواضعان له. ويفترض تعلمه على كل مكلف من ذكر وأنثى — ولو بأدلة إجمالية، وأما معرفة أدلته التفصيلية فهي فرض كفاية إذا قام بها بعض الأمة سقط الطلب عن الباقين، والصحيح أن من قلد غيره في العقائد الدينية بأن يعتقدها اعتقاداً جازماً لا يقبل الشك والتردد يكون إيمانه صحيحاً ولكنه يكون آثماً بترك النظر في الأدلة إن كان قادراً على ذلك

وإلا فلا ، وإنما سمي هذا العلم علم التوحيد ، لأن أشهر مباحثه البحث عن توحيد الله تعالى ، وهو أساس الدين .

البحث الثاني

في بيان حقيقة الإيمان ، وحقيقة الإسلام

اعلم أن الإيمان الذي كلف الله تعالى به عباده وجعل جزاءه دخول الجنة ، والنجاة من النار هو : تصديق سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما علم مجيئه به بالضرورة : أي اعتقاد صدقه عليه الصلاة والسلام اعتقاداً جازماً فيما جاء به عن الله تعالى ، وعلم مجيئه به يقيناً مع الإذعان القلبي لذلك ، وذلك مثل الإيمان بالله تعالى وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، والقضاء والقدر وافتراض الصلاة وبقية العبادات الإسلامية : من الزكاة ، والصيام والحج على المستطيع ، وتحريم قتل النفس المعصومة ظلماً ، والزنا وأمثال ذلك .

والإسلام : هو الخضوع والانقياد باطناً وظاهراً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلم مجيئه به بالضرورة أي علم مجيئه به يقيناً . فكل من الإيمان والإسلام المنجيين لا ينفك عن الآخر ، فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، لأن المصدق ذلك التصديق للرسول عليه السلام لابد أن يكون خاضعاً لما جاء به عليه السلام ، والخاضع هذا الخضوع لابد أن يكون مصدقاً ذلك التصديق . ثم إن النطق بالشهادتين – وهما : أشهد أن لا إله إلا الله

وأشهد أن محمداً رسول الله ؛ قد جعل شرطاً لازماً لإجراء الأحكام الدنيوية على المؤمن : من نحو مناكحته . والصلاة خلفه . والصلاة عليه ، ودفنه فى مقابر المسلمين . فإذا لم ينطق بهما لعذر كالخرس . أو لم يتمكن من النطق بهما بأن مات عقب ما آمن بقلبه ، أو اتفق له عدم النطق بهما بعد الإيمان بقلبه أيضاً ، فهو مؤمن عند الله تعالى وناج فى الآخرة ، لكن من امتنع عن النطق بهما عناداً بعد أن عرض عليه ذلك فهو كافر والعياذ بالله تعالى ، ولا عبرة بتصديقه القلبى الذى يحصل منه ، لأن هذا الامتناع قد جعله الشرع منافياً للإيمان ، وحكم بكفر صاحبه .

البحث الثالث

فى بيان ما اعتبره الشرع منافياً للإيمان ، ومبطلاً له والعياذ بالله تعالى

اعلم أن الشرع الشريف نهى وحذر عن الأمور المنافية للإيمان ، وحكم بكفر من يرتكبها وإن كان مصدقاً بقلبه ، ومنقاداً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ وذلك مثل السجود للصنم اختياراً ، أو الاستهانة بما عظمه الدين : كالقرآن الشريف ، وحديث الرسول المنيف ، والشريعة المطهرة ، ورسل الله الكرام وأسمائه العظيمة ، وصفاته الكريمة ، وأوامره ونواهيه ، والفرائض الدينية ، كالصلاة ، والحج ، أو الشتم لواحد مما ذكر ، أو التلفظ بكلمة الكفر ، أو نحو ذلك ، فإن هذا وأمثاله ينافى الإيمان ، ويحكم على مرتكبه بالكفر والخذلان ، وكذلك إذا كذب الإنسان شيئاً من النصوص الشرعية الثابت ورودها عن الرسول عليه الصلاة

والسلام يقينا . كآياتِ القرآن ، وأحاديثِ الرسول المتواترة عنه عليه السلام أى التى نقلها الجمعة الكثيرون الذين يؤمن توافقهم على الكذب ، أو استحلّ حراماً ثبتت حرمته فى الشرع قطعاً ، وظهرت حكمة قبحه : كقتلِ النفسِ المعصومة ، والزنا ، وأمثالِ ذلك ، فإن ذلك الإنسان يكون قد أخل بالتصديقِ الإيمانى ، والانقيادِ الإسلامى وأتى بما يبطلهما ، ويحكم عليه شرعاً بالكفر ، وعلى كل من كفر — والعياذ بالله تعالى — أن يبادر لتجديدِ إيمانه وإسلامه ، ويتوب عما ارتكبه ، وإلا فيستحق القتل فى الدنيا . والخلودَ فى النار فى الآخرةِ ، نعوذ بالله تعالى وبه نعتصم .

البحث الرابع

فى أحكامِ العقل الثلاثةِ ، وهى : الوجوبَ ، والاستحالةَ ، والجواز

اعلَم أنه لما كانَ الإيمانِ بالله تعالى على ماسيأتى هو : معرفة مايجب لله تعالى ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز فى حقه سبحانه ، وكذلك الإيمان ببقية ما يجب الإيمان به : من نحو الرُسُل والملائكة ؛ لزم أن نبيّن معنى الوجوبِ ، والاستحالةِ ، والجوازِ العقليات التى انحصرت بها أحكامُ العقل ، وليس لها حكم سواها : فنقول : —

أما الوجوبُ العقلىّ فهو : عدمَ قبولِ الانتفاءِ ، والشىءَ الذى لا يقبل الانتفاء يقال له الواجبَ العقلى . بمثاله : كون الواحد نصف الاثنين ، ووجودَ خالقِ العالَم ، فكون الواحد نصف الاثنين واجبٌ عقلى ، ووجودَ خالق العالم واجبٌ عقلى لا يقبلان الانتفاء والعدمَ ، لكن الأوّل واجبٌ عقلىّ بديهى لا يحتاج إلى دليل

والثاني واجب عقلي نظري يحتاج إلى دليل .

وأما الاستحالة ، فهي عدم قبول الثبوت ، والشيء الذي لا يقبل الثبوت يقال له المستحيل العقلي ويسمى محالاً أيضاً . مثاله : كون الثلاثة نصف العشرة ، ووجود شريك لخالق العالم ، فكون الثلاثة نصف العشرة مستحيل عقلي . ووجود شريك لخالق العالم مستحيل ومحال عقلي ، لكن الأول مستحيل عقلي بديهي لا يحتاج إلى دليل ، والثاني مستحيل عقلي نظري يحتاج إلى دليل .

وأما الجواز . فهو : قبول الثبوت والانتفاء ، والشيء الذي يقبل الثبوت والانتفاء يقال له الجائز العقلي ، مثاله سفر زيد ، أو قلب الحجر ذهباً بقدرة الله تعالى ، فسفر زيد جائز عقلي ، وقلب الحجر ذهباً بقدرة الله تعالى جائز عقلي ، لكن الأول جائز عقلي بديهي لا يحتاج إلى دليل ويسمى عادياً ايضا ، بمعنى أنه يحصل وقوعه في العادة ولا تستغربه العقول ، والثاني جائز عقلي غير بديهي يحتاج ثبوت جوازه إلى دليل ويسمى غير عادي ، بمعنى أنه يندر وقوعه في العادة ، أو أنه لم يقع قط ، ولذلك تستغربه العقول في بادىء الأمر ، ولكن إذا بحث عنه بالدليل وجد أنه جائز الرجوع وليس مستحيل الوجود ، ومثله انقلاب العصا ثعبانا ، وانفلاق البحر ، وعدم حرق النار لجسد الإنسان ، ونطق الحيوان الأعجم ، وأمثال ذلك ، فإن هذه الأشياء وإن كان وقوعها غير عادي ، لكن إذا بحث عنها بالدليل وجد أنها جائزة الوقوع ، وداخلة تحت تصرف قدرة موجد العالم سبحانه .

وانه إذا قطعنا النظر عن العادة لم تكن أمثال هذه الأشياء

بأغرب من خلق الإنسان الذى يكون أولا ترابا ، ثم ينقلب نباتا ، ثم غذاء ، ثم دما ، ثم نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم حيوانا ناطقا ، سميعا بصيرا ، ثم يصير عالما محققا ، وحكيما مدققا ، ولولا العادة لكان من أغرب الغرائب عند العقل أن المطر ينزل على الأرض الترابية فينبت به أنواع الأشجار والأزهار والأثمار المتنوعة الألوان ، والطعوم والروائح ، والخواص ، ولولا العادة لكان من أعجب العجائب أن شرارة صغيرة تخرج من قدح حديدة على حجر فتبتلع مدينة كبيرة بأهلها وجميع ما فيها ، وتصيرهم رمادا ، ولولا العادة لكان من أبعد شىء عن التصديق أن قوة غير مرئية تحصل من تفاعل بعض الأجزاء ، فتحرك الأجسام العظيمة وتجر الأثقال الجسيمة ، وتتناقل بواسطتها أفكار البشر فى أقطار الأرض الشاسعة ولجج البحار الواسعة ، ألا وهى القوة الكهربائية إلى غير ذلك من الكائنات التى ما أزال غرابتها عن العقول إلا تكرر وقوعها بيننا ، ولا فرق بين هذه الأشياء العادية الوقوع وبين تلك الأشياء غير العادية الوقوع إلا حصول العادة فى الأولى دون الثانية . وإلا فإذا نظرنا فى الدليل العقلى ، وجدنا أن كلا منهما جائز الوقوع وداخل تحت تصرف قدرة موجد العالم الذى ابتدع هذه الأكوان وأودعها من الأسرار ما تحتار فيه الأفكار .

وليعلم أن تلك الجائزات غير العادية هى التى جعل الله تعالى وقوعها على أيدى الرسل عليهم الصلاة والسلام معجزة لهم ، شاهدة بصدقهم فيما يخبرون به عنه تعالى ، كما سيأتى شرح هذه المباحث الآتية ، إن شاء الله تعالى .

البابُ الأوّل

في بيانِ الإيمانِ باللهِ تعالى ، وبيانِ اعتقادِ أهلِ السنةِ بالنصوص الشّرعيّة الوارِدة في صفاتِه سبحانه ، وفيه ستة فصولٍ

الفصل الأوّل

في تعريفِ الإيمانِ باللهِ تعالى

اعلَمْ أنّ معنى الإيمانِ باللهِ تعالى هو : أن يَعلم العبد ويعتقِد اعتقاداً جازمًا ما يجب للهِ تعالى من الصِفات ، وما يستحيل عليه من أضدادِها ، وما يجوز في حقه سبحانه ، فيعتقد إجمالاً اعتقاداً جازما أنه يجب للهِ تعالى كلّ صفةِ كمالٍ تليق بشأن الألوهيّة ، ويستحيل عليه تعالى كل نقصٍ ، ويجوز في حقه فعلَ كل ممكن أو تركه ، ولكن يجب على العبدِ أن يعتقد تفصيلاً وجوب ثلاث عشرةَ صِفة كماليّة لله تعالى عليها مدارُ الألوهية ، وعظمة شأنِ الربوبيّة ، واستحالة أضدادِها عليه سبحانه ، وتلك الصفات الثلاث عشرة : هى الوجودَ وضدّه العدم ، والقِدم وضده الحدوث ، والبَقاء وضده الفَناء ، والمخالفة للحوادث وضدها المماثلة للحوادث وقيامه تعالى بنفسه وضده قيامه تعالى بغيره ، والوحدانية وضدها أن لا يكون واحِدا ، والإرادة وضـدها الكراهية والقدرة وضدها العجز ، والعلم وضده الجهل ، والسمع وضده الصمم ،

والبَصَر وضده العَمَى ، والكلامَ وضده البَكم ، والحياة وضدها الموت ، وكمالُ هذا الاعتقادِ أن يكونَ بالبراهينِ المفيدة لليقينِ ، وللشرح فى الفصلِ الآتى بيانَ وجوبِ كلِ صفةٍ من هذه الصفات الثلاثَ عشرةَ واستحالةِ أضدادِها مع الدليلِ المفيد لليقينِ فى ذلك بعون الله تعالى .

الفصل الثانى

فى بَيان الصفاتِ الثلاثَ عشرةَ التى يجبُ الإيمان تفصيلًا بوجوبها لله تعالى ، وباستحالةِ أضدادِها مع الدليلِ المفيد لليقينِ فى ذلك .

(الصفة الأولى : الوجود) يجب لله تعالى الوجود ، ويستحيل عليه ضدّه وهو العَدَم ، والدليل على ذلك أنّ هذا العالَم المشاهد لنا بجميع ما يحويه حادِث ، وكل حادثٍ لا بد له من مُحدِث ، فهذا العالم لا بد له من محدِث . أما الدليل على أنّ هذا العالم حادث فهو كونه مُلازِماً للأعراض الحادِثة : من الحَركة والسكون ، والصُوَر الحيوانيّة ، أو النباتيّة ، أو المَعدنيّة أو غيرها من الصُوَر التى لا تخلو مادة العالَم وجوهره عن واحدةٍ منها ، وكل مُلازم للحادِث يكون حادِثا . وتوضيحه أنّ هذه الأعراضَ حادِثة بدليل أنّ كُلّ واحدٍ منها يزول ويخلفه غيره ، والقديم لا يزول ، لأنه إما قديم لذاته ، وإما قديم لغيره بمعنى أنّ شيئاً آخر قديماً استلزم وجوده ، وما دامت ذات القديم قائمة ، أو الذى استلزمه قائماً فلا يجوز عقلا زواله فإذ ثبت كون هذه الأعراض حادثة نقول : أصل مادة العالَم وجوهره إما أنه كان موجودا قديما ، وخاليا عن أعراض وهذا

باطل؛ لأنّ الأعراض ملازمة لا يخلو عنها جميعها، إذ لا يتصور خُلوّه عن الحركة والسكون وجميع الصور، وإما أن يقال: حدث وحدثت تلك الأعراض معه، فثبت حينئذ أنه حادث والأعراض أيضا حادثة؛ فثبت أنّ هذا العالم بجميع ما يحويه حادث وهو المطلوب.

وأما الدليل على أنّ كلّ حادث لابد له من مُحدِث، فلأنه لو وُجد الحادث بدون مُحدِث يلزم الترجيح بلا مُرجّح، وهو من المستحيلات البديهية. وتوضيحه لمن قد يخفى عليه ذلك: أنّ العقل لا يصدّق بأن إحدى كفتي ميزان متساويتين في الثقل بينما كانتا متوازنتين، أو اليسرى مثلا مائلة وبالغة بميلها إلى الأرض بسبب من الأسباب إذا رجحت اليمنى على اليسرى وارتفعت اليسرى إلى غاية ما يمكن من ارتفاعها وأنّ ذلك حصل بدون مُرجّح للكفة اليمنى الراجحة، لا بقوّة حيوان، ولا بمصادمة هواء. ولا جسم آخر سقط فيها، ولا بشيء مما يصلح لترجيحها. ومن يُصدّق بهذا عُدّ من الحمق، ولا فرق بين هـــذا المثال وبين جميع ما يتصوّر من الحقائق سواء كانت حسّية أو عقلية في أنّ الترجيح بلا مُرجِّح فيها من المستحيل كما هو ظاهر. فثبت بهذا: أنّ وجود الحادث بلا مُحدِث مُستحيل، فلابد لكل حادث من مُحدِث يخرجه من ظلمة العدم إلى نور الوجود فتمّت لنا الدعوى وهي: أنّ هـذا العالم الحادث لابد له من مُحدِث، ثم إنّ هذا المُحدِث لابد أن يكون موجودا؛ لأنّ المعدوم لا يصلح أن يكون مُوجِدا لشيء كما هو

ظاهر ، فثبت بجميع ما تقدّم وجوبُ وجودِ مُحدِثٍ مُوجِدٍ لهذا العالَم واستحالة عَدَمِه وهو المطلوبُ من هذا البحث ، وقد سمّى العقلاء هذا الموجِد للعالَم بإله العالَم ، ووَرَدت الشرائع بتسميته باسم الجلالة وهو الله تبارك وتعالى .

(الصفة الثانية : القِدَم) يجب لله تعالى القِدَم ويستحيل عليه تعالى ضِدّه وهو الحدوث ، والدليل على ذلك أنه سبحانه لو كان حادِثاً لاحتاج إلى مُحدِث ، ومُحدِثه - مع فرضه حادثاً - يحتاج إلى مُحدِث ، وهكذا ، فيلزم إما الدَّور وإما التسلسل وكلّ من الدَّور والتسلسل مُحال ، فما أدّى إلى واحدٍ منهما وهو حدوث الله تعالى يكون مُحالاً ، وإذا استحال حدوثه وَجَب أن يكون قديماً وهو المطلوب .

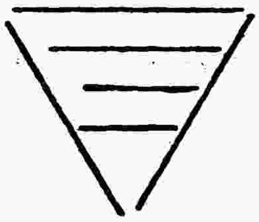
أما الدور : فهو توقُّف وجودِ كلٍّ من الشيئين على وجودِ الآخر فيلزم أنّ كلّاً منهما وُجِد قبل وجودِ سَبَبِه فيلزم أن يُوجَد قبل وجودِ ذاته وهو ظاهِرُ البطلان ، فلو قلنا : إنّ الإله الذي توقف عليه وجودُ العالَم توقف وجوده على العالَم لزم أنّ العالَم قد وُجِد قبل وجودِ الإلهِ الذي كان سَبَبَ وجودِه ، فيلزم أن يكون وُجِد العالَم قبل وجودِ ذاته وهو ظاهِرُ البُطلان .

وأما التسلسل : فهو ترتّب أمورٍ وتعاقبها في جانب الأزل لا نهاية لها ، وإنما حكم العقل باستحالته ، لأنه يستلزم المحال وما يستلزم المحال يكون محالاً .

وقد ذكر العلماء لبيانِ استحالةِ التسلسل عِدّة أدِلّة نذكر منها

هنا ما يسهل فهمه. فنقول: لا شك أن العقل يحكم قطعاً بأن الشيء الذي يكون محصوراً بين حاصرين لابد أن يكون متناهياً واجتماع كونه محصوراً بين حاصرين وكونه غير متناهٍ محال، فلو كان التسلسل جائزاً عقلاً لساغ لنا أن نفرض خطين يخرجان من نقطة بصورة ساقي شكل مثلث ذاهبين إلى غير نهاية فأجزاؤهما بمنزلة أمور مرتبة متعاقبة في جانب الأزل غير متناهية. ثم لنا أن نفرض المسافات التي بين هذين الخطين ونعتبرهما خطوطاً تمتد وتطول كلما امتد الخطان وتباعدا

هكذا



فإذا قلنا بعدم تناهي الخطين يلزم منه عدم تناهي المسافات بينهما التي اعتبرناها خطوطاً، فلا بد أن تنتهي إلى خط من تلك الخطوط غير متناهٍ، والحال أنه محصور بين حاصرين وهما الخطان، وقد تقدم أن المقدار الذي يكون محصوراً بين حاصرين لابد أن يكون متناهياً، واجتماع كونه محصوراً بين حاصرين وكونه غير متناهٍ محال فما أدى إليه وهو عدم تناهي الخطين الذي فرضنا فيه التسلسل يكون محالا، فبعد بيان أن كلا من الدور والتسلسل محال يثبت: أن الإله الذي هو موجد العالم لا يجوز أن يكون حادثا عن شيء آخر. وإلا يلزم الدور فيما لو قلنا إن وجود الإله متوقف على وجود العالم، أو التسلسل فيما لو قلنا: إن وجود الإله متوقف على وجود شيء آخر، والشيء

الآخر متوقف على آخر . وهكذا إلى غير نهاية ، وكل من الدور والتسلسل محال — كما تقدم — فما يؤدي إلى واحد منهما وهو : كون الإله حادثاً متوقفاً على غيره يكون محالا ، وإذا استحال حدوثه ، وجب أن يكون قديماً ، إذ لا واسطة بين الحدوث والقدم وجوب قدمه سبحانه واستحالة حدوثه هو المطلوب .

ثم بعد ثبوت قدم الله تعالى واستحالة حدوثه نقول : إن قدمه سبحانه لذاته وليس قدمه لغيره ، بمعنى أن أمراً آخر اقتضى وجوده لأنه لو قيل : بأنه قديم لغيره لانتقل الكلام إلى ذلك الغير ويقال هل هو قديم لذاته أو لغيره ؟ وهكذا إلى غير نهاية فيلزم التسلسل وهو محال فلم يبق إلا القول : بأنه قديم لذاته أي أنه ليس [redacted] في قدمه إلى سواه .

(الصفة الثالثة : البقاء) يجب لله تعالى البقاء ويستحيل عليه ضده وهو الفناء والزوال : والدليل على ذلك أنه قد ثبت وجوب القدم الذاتي لله تعالى ، واستحالة الحدوث عليه سبحانه ، وما دام أنه تعالى قديم لذاته وذاته تعالى قائمة ، وقيامها يستلزم وجودها فلا يجوز أن يقبل الفناء والزوال ، فثبت بهذا أن الله تعالى يجب له البقاء ويستحيل عليه ضده وهو الفناء وهو المطلوب .

(الصفة الرابعة : المخالفة للحوادث) يجب لله تعالى المخالفة للحوادث ويستحيل عليه ضدها وهو المماثلة للحوادث ، بأن يكون تعالى مشابهاً لهذه الموجودات الحادثة في خاصة من خواصها التي من طبيعة نفسها أن تكون لازمة لها لا تنفك عنها أو من

طبيعة نفسها أن تقبلها ، سواء كانت توجد في جميع الأنواع منها أو في بعضها وذلك كالجوهرية ، والجسمية ، والعرضية ، والتحيز والتركب ، والتجزي ، والتولد عن الغير ، وولادة الغير ، والاتصال والانفصال ، والحيوانية ، والنباتية ، والمعدنية والانتقال من حيز إلى حيز ، والانفعالات النفسية : كالضحك والتعجب ، وأمثال ذلك ، لأن الإله — سبحانه — لو شابه هذه الموجودات الحادثة في شيء من تلك الخواص لكان مثلها ، لأن الشيء الذي يشابه شيئاً آخر في خاصة من خواصه يكون مثله البتة ، ولو كان الإله مثلها لجاز عليه ما جاز عليها من الحدوث والفناء ، لأنه ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى وبقائه واستحالة حدوثه وفنائه ، فقد ثبت بهذا أن الله تعالى لا يجوز أن يشابه هذه الموجودات الحادثة ، فوجب له مخالفتها ، واستحال عليه المماثلة لها وهو المطلوب .

(الصفة الخامسة : قيامه تعالى بنفسه) يجب لله تعالى قيامه بنفسه ويستحيل عليه تعالى ضده وهو قيامه بغيره : بمعنى احتياجه إلى مكان يقوم فيه ، أو محل يحل فيه ، أو مخصص يخصصه ، أو موجد يوجده . والدليل على ذلك أنه قد ثبت في دليل المخالفة للحوادث أنه تعالى ليس جوهراً ولا جسماً ، فلا يحتاج إلى مكان يقوم فيه ، لأن الاحتياج إلى المكان من خواص الجواهر والأجسام ، وثبت هناك أنه تعالى ليس عرضاً فلا يحتاج إلى محل يحل فيه ويقوم به كما تحتاج الأعراض مثل الألوان

والطعوم إلى ذلك ، وثبت أيضاً أنه تعالى قديم فلا يحتاج إلى مخصص يخصصه وموجد يوجده فثبت وجوب قيامه تعالى بنفسه واستحالة قيامه بغيره وهو المطلوب .

(الصفة السادسة : الوحدانية) يجب لله تعالى الوحدانية أى أنه تعالى واحد فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، ويستحيل عليه ضدها : وهو أن لا يكون تعالى واحداً فيما ذكر ، بأن يكون مركباً فى ذاته أو فى صفاته . أو يكون له مماثل فى ذاته أو فى صفاته ، أو له مشارك فى خلق فعل من الأفعال .

أما الدليل على أنه تعالى ليس مركباً فى ذاته ، ولا فى صفاته فهو : أنه تعالى لو كان مركباً فى واحد منهما لأشبه الحوادث فى خاصة من خواصها ومقتضيات ذاتها وهو التركيب — كما تقدم فى دليل مخالفته تعالى للحوادث — فيكون حادثاً مثلها ، وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى واستحالة حدوثه ، وأما الدليل على أنه تعالى ليس له مماثل فى ذاته ، ولا فى صفاته ، فلأنه لو وجد له مماثل فى ذاته يجب لذلك المماثل ما يجب له تعالى ويستحيل عليه ما يستحيل عليه سبحانه ، أو وجد له مماثل فى صفاته الواجبة القديمة لاسيما فى تمام القدرة على كل ممكن — كما سيأتى فى إثبات وجوب القدرة التامة له تعالى — لكان ذلك المماثل فى الذات أو فى الصفات الواجبة القديمة إلهاً ، ولو كان معه سبحانه وتعالى فى الوجود إله لما وجد هذا العالم كما أشير إليه بقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا

اللهُ لَفَسَدَتا) أى لو كان يقوم فى خَلْقِ السمواتِ والأرضِ آلهةٌ غيرُ الله تعالى أى وإن كان اللهُ تعالى معهم لفسدتا أى لم تُوجدا .

وشرحُ هذا الدليلِ أن يقال : لو تعدّدَ إلهُ العالمِ كان يكون هناك إلهان أو أكثر - إذ لا فرقَ فى هذا الاستدلالِ - لما وُجِدَ شىءٌ من هذا العالَمِ ، لكن عدمُ وجودِ شىءٍ من هذا العالمِ باطلٌ ، لأنه موجودٌ ثابتٌ بالمشاهَدةِ ، فما أدّى إليه وهو تعدّدُ الإلهِ يكون باطلاً وإذا بَطَلَ التعدّدُ ثبتتِ الوحدانيةُ وهو المطلوبُ ، وإنما يلزم من وجودِ إلهينِ عدمُ وجودِ شىءٍ من العالَمِ ، لأنهما إما أن يتفقا على إيجادِ هذا العالمِ وإما أن يختلفا ، فإن اتفقا فلا جائزٌ أن يُوجِداه ، لأنه إما أن يحصلَ بإيجادِ كلٍّ منهما وُجودٌ للعالَمِ مستقلٌ فيلزمُ أنّ له وُجودين وهو إنما له وجودٌ واحدٌ فقط ، وإمّا أنْ لا يحصلَ بإيجادِهما إلّا وجودٌ واحدٌ للعالَمِ فيلزَمُ أنّ كلاً منهما لم يُوجِده بانفرادِه بل بمشاركةِ الآخرِ ، فيكون هذان الإلهان قد رُكّبا وجُعِلا إلهاً واحداً ينسب إليه الإيجادُ ولا يُنسَبُ لواحدٍ منهما على الاستقلالِ ، لأنه جزءُ الموجِدِ لا موجِدٌ مستقِلٌّ ، وإلهُ العالَمِ إنما هو مُوجِده المستقِلّ إذ يلزم له كمالُ القدرةِ ، وغيرُ المستقلِ يكون عاجزاً محتاجاً إلى مُعينٍ ، وأيضاً إذا قيل : إنّ الإلهَ حقيقةً هو المجموعُ المركّبُ من الاثنين قلنا : قد ثبتَ أنّ التركيبَ مُحالٌ على الإلهِ لوجوبِ مخالفتِه للحوادثِ فى صفاتِها التى من خوّاصِ نفسِها ومنها التركيبُ ، ولا جائزٌ أن يُوجِدَه أحدُهما ثم يُوجِده الآخرُ لأن هذا تحصيلُ حاصِلٍ وهو مُحالٌ كما هو ظاهرٌ ، ولا جائزٌ أن يُوجِد

أحدهما البعض من هذا العالم ، والآخر البعض الآخر للزوم عجزهما حينئذ لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سد على الآخر طريق تعلق قدرته به ، وهذا العجز ينافى تمام القدرة على كل شىء والعجز على الإله محال كما سيأتى من وجوب تمام قدرته تعالى على كل جائز ، وإن اختلفا ، بأن أراد أحدهما إيجاد هذا العالم والآخر إعدامه فلا جائز أن تنفذ إرادتهما معاً ، لئلا يلزم على هذا اجتماع النقيضين : وهو وجود العالم وعدمه فى آن واحد وهو محال ، ولا جائز أن تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر للزوم عجز من لم تنفذ إرادته والآخر مثله لانعقاد المماثلة بينهما ، وقد يقال إذا نفذت إرادة أحدهما دون الآخر كان الذى نفذت إرادته هو الإله دون الآخر لعجزه وتم دليل الوحدانية .

ودليل آخر على استحالة تعدد الإله أنه لما وجب وجود إله للعالم بدليل أن الحوادث لابد لها من محدث ، فإذا وجد إله آخر فإما أن لا يكون كل منهما كافياً فى إيجاد العالم فلا يكون كل منهما إلهاً ، لأن الإله هو الكافى المستقل ؛ وإما أن يكون واحد منهما كافياً فالثانى يكون ضائعاً لا حاجة إليه ، والإله لا يكون كذلك .

وأما الدليل على أنه تعالى ليس له مشارك فى فعل من الأفعال : فلأن الحوادث فى هذا الكون إما هى حدوث حيوان أو نبات أو معدن أو حركات غير الحيوانات : كحركات الكواكب والرياح ، أو حركات الحيوانات غير الاختيارية : كحركة نموها وحركة ارتعاشها الحاصلة بسبب الحمى مثلا ، فهذه الأشياء من

البديهي أنه ليس لسوى الله تعالى من المخلوقات دخل فى إيجادها وإحداثها ، ومما يجزم به كل عاقل أنه لم يصوره بصورته التى هو عليها أبوه أو أمه أو أحد من الخلق فيقال بعد ذلك : إن الدليل على تفرد الله تعالى بإيجاد جميع ما ذكر هو نظير الدليل على أنه تعالى ليس له مماثل فى ذاته ولا فى صفاته ، إذ نقول فى إيجاد كل منهما : لو كان هناك موجدان . فاما أن يتفقا فى إيجاد كل شيء مما ذكر ، وإما أن يختلفا ويتمم الدليل إلى آخره كما تقدم قريبا فيثبت أنه ليس خالق لهذه الأشياء إلا الله تعالى . وإما أن تلك الحوادث حركات العباد الاختيارية : من نحو قيام زيد ، ومشى عمرو ونحو ذلك فهذه أيضاً إنما المتفرد بخلقها وإيجادها هو الله تعالى ، والدليل على ذلك أنه لو كان العبد هو الموجد والخالق لفعله الاختيارى لكان عالما بتفاصيله لكن علمه بتفاصيله باطل ، فكونه هو الموجد له يكون باطلا فلم يبق إلا أن الموجد له هو الله تعالى الذى أوجد بقية الكائنات ولم يشاركه فيها مشارك .

والدليل على بطلان علم العبد بتفاصيل فعله : أن النائم تحصل عنه أفعاله اختيارية لا شعور له بتفاصيل مقاديرها وكيفياتها ، وأن الكاتب يصور الحروف والكلمات بتحريك أنامله من غير شعور له بما للأنامل من الأجزاء والأعضاء : أعنى العظام والغضاريف والأعصاب والعضلات والرباطات ، ولا بتفاصيل حركاتها وأوضاعها التى بها تتأتى تلك الصور والنقوش ؛ ثم إنه قد تواترت النصوص الشرعية بأن الخالق لأفعال العباد هو الله ، قال تعالى فى

كتابه العزيز (واللهُ خلقكم وما تعملون) وقال تعالى (هل من خالقٍ غيرُ الله) .

ويسوغ لأهل الإيمانِ الاعتماد فى عقائدهم على هذه النصوص الثابتة فى الدين المحمدى المبين . وأخذها دليلَ عقيدتهم على أن الخالق لأفعالِ العباد هو الله تعالى ، لكن للعبد كسبًا فى أفعاله الاختيارية هو مناط الثواب والعقاب ، وبه صحّ نسبة الفعل إلى العبد فى قولنا فعله . قال الإمام الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه فى (الفقهِ الأكبر) ما نصه : وجميع أفعالِ العبادِ من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله خالقها انتهى . قال مفسر كلامه من الأئمة الكرام : يعنى أن أصلَ الفعلِ بقدرة الله تعالى والاتصافَ بكونه طاعةً أو معصيةً بقدرةِ العبدِ ، وتبيانٍ آخر أنَّ العبدَ يوجّه إرادته إلى الفعل ويعلّق قدرته به فيكون ذلك منه سببًا لاتصافه به كيفية الأسبابِ فى جانبِ مسبباتها وهذا من العبدِ هو الكسب والله تعالى عند ذلك يوجده بقدرته وهذا هو الخلق ، وهذا هو المذهب المتوسط بين الإفراطِ والتفريط ، فلا نقول بأنه لا دخلَ للعبدِ فى جميع أفعاله ، ولا نقول : بأنه لا دخلَ لله فى أفعال العبادِ الاختيارية بل نقول : إنّ الله تعالى خالق أفعالهم وهم يكتسبونها . وعلى كسبهم يثابون أو يعاقبون .

(الصفة السابعة : الإرادة) يجب لله تعالى الإرادة ، وهى صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يخصص بها كل جائز ببعض ما يجوز عليه ، ويستحيل عليه ضدها وهو الكراهية ، والدليل على ذلك

أنه قد ثبت أنّ هذا العالَم لم يحدث بذاته . وإنما حدث عن الله سبحانه . وحينئذ نقول : إنّ حدوث العالَم عنه تعالى ، إما أن يكون بطريق العلية والضرورة بدون إرادة واختيار ، وإما أن يكون بطريق الإرادة والاختيار : أى أنه هو الذى أراد وجوده واختاره وعيّن له الوقت الذى يوجده فيه . لا جائز أن يكون حدوث العالم عنه تعالى بطريق العلية والضرورة بدون اختيار ، لأنه لو كان الأمر كذلك — والله سبحانه قديم للزم أن يكون العالم قديما ؛ لأنه حينئذ يكون معلولا لله تعالى والمعلول يجب أن يتبع علته ولا يتأخر عنها ؛ وقد ثبت أنّ العالم حادث وُجد بعد أن لم يكن ، فلم يكن حدوثه عن الله تعالى بطريق العلية والضرورة فلم يبق إلا أنه حدث بإرادة الله تعالى واختياره وتخصيصه له الوقت الذى يوجد فيه ، فقد ثبت بهذا أنّ الله تعالى إله العالم مريد مختار فوجبت له الإرادة واستحال عليه ضدها وهو الكراهية وهو المطلوب .

(الصفة الثامنة : القدرة) يجب لله تعالى القدرة وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يوجد بها الحوادث ويعدمها ، ويستحيل عليه ضدها وهو العجز ، والدليل على ذلك إيجاده سبحانه لهذا العالم وما احتوى عليه من الأنواع ذات العظمة والغرابة : من نحو عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم المعادن التى تشتمل على مئات الألوف من الأصناف التى تحتار فى عظمتها وغرابتها العقول ، وتغرق فى بحار عجائبها الفهوم ولا يصدق العقل السليم ، ومن أجلى المستحيلات عنده : أن من أوجد هذا العالم بهذه العظمة والجلالة

والغرابة يكون عاجزاً مسلوبَ القدرة ، فثبت بهذا أن الله تعالى إله هذا العالم الذى أوجده من العدم بتلك العظمة ، يجب له القدرة ويستحيل عليه ضدها وهو العجز وهذا هو المطلوب .

(الصفة التاسعة : العلم) يجب لله تعالى صفة العلم وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ينكشف له بها جميعُ الأشياء من الواجبات والجائزات والمستحيلات ، فيعلم سبحانه كل شىء منها على ما هو عليه من الوجوب أو الاستحالة أو الجواز ، ويستحيل عليه تعالى ضده وهو الجهل ؛ والدليل على ذلك إيجاده سبحانه لهذا العالم بما احتوى عليه من العجائب والغرائب مع نهاية الإتقان وغاية الإحكام بما تحتار فى دقيق صنعه العقول وفى إتقانه الفهوم ، ويتضح هذا من نظر الإنسان فى أقرب الأشياء إليه ، وهو ذاته المشتملة على التدبير الباهر والإتقان الذى تحتار فيه الأذهان ، فكيف إذا تأمل فى عجائب الكواكب ونظامها وعالم الحيوان والنبات والمعدن وما حوته من الأنواع والموافقات والاختلافات ، إلى غير ذلك من العجب العجاب ؟ فمن المستحيل عند العقل السليم أن الذى أوجد هذا العالم بهذا الإتقان والإحكام ودقيق الصنعة وعجيب الوضع يكون جاهلاً غير عالم ، فثبت بهذا أن الله تعالى إله العالم الذى أوجده بهذا الإتقان يجب له العلم ، ويستحيل عليه ضده وهو الجهل وهذا هو المطلوب .

وتوضيح دليل وجوب القدرة والعلم لله تعالى بنوع من البسط أن نقول : إن من نظر مثلاً ساعة من الساعات التى يستعمل

بها الوقت المحتوية على عدة آلات هندسية متقنة محكمة حتى
وفت بالغرض وضبطت الأوقات حتى الثوانى منها لا شك عنده
ولا ريب فى أن لها صانعا صنعها وأن هذا الصانع له قدرة كافية
لصنعها وعلم كاف لإتقانها وإحكامها حتى تفى بالغرض المقصود
منها ، ومن يصدق بأنها حصلت وتكونت بنفسها بطريق الصدفة
بدون صانع صنعها وأتقنها أو أن صانعها عاجز مقطوع اليدين
والرجلين جاهل بفنون الهندسة والصنائع ، بل هو خامل الفكر
جاهل بكل علم ، ومع ذلك صنعها بذلك الإتقان والإحكام فبعد
هذا المصدق من الحمقاء الذين لا يفرقون بين الأرض والسماء ؛
فكذلك إذا نظرنا فى هذا العالم مع ما احتوى عليه من عجائب
كواكبه وغرائب حيوانه ونباته ومعداته التى ملأت علومها الكتب
وطفحت بها الصحف ولم نزل قاصرين عن الإحاطة بكل
ما اشتملت عليه من العظمة والغرابة — كما يعلم من الاطلاع على
كتب الفنون المتكفلة بالكلام على هذه العوالم — نجزم قطعا مع غاية
اطمئنان قلوبنا بأن هذا العالم بجميع مشكلاته لابد له من صانع
صنعه وأبرزه بهذا الإتقان والإحكام ونوع أنواعه وصنف
أصنافه وميز أشخاصه ، وهو قادر أتم القدرة وعالم أكمل العلم
يستحيل عليه العجز والجهل ؛ ومن نسب ذلك الصنع العظيم
العجيب إلى حدوثه بنفسه صدفة واتفاقا ، أو إلى شىء آخر عاجز
جاهل خال عن كل إدراك ومعرفة فلا شك أنه من أحمق الحمقاء
وأجهل الجهلاء وإن تستر بتمويهات واهية وخرافات ساقطة ، إذ

فطرة العقل السليم تأبى تصديق دعواه الباطلة . فنحن نجزم بما اعتقدناه من نسبة صنع هذا العالم للإله القادر العليم ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(الصفة العاشرة : السمع) يجب لله تعالى صفة السمع وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بصماخ وأذن تنكشف بها مسموعاته تعالى يستحيل عليه ضده وهو الصمم : والدليل على ذلك أن الصمم نقص والنقص على إله العالم الذى أوجده مكملا ووهب السمع لبعض أنواعه وجعله من أكبر النعم عليهم محال ، وإذا استحال عليه سبحانه الصمم وجب له السمع وهو المطلوب .

(الصفة الحادية عشرة : البصر) يجب لله تعالى صفة البصر وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بمقلة ولا حدقة تنكشف له تعالى بها مبصراته ويستحيل عليه تعالى ضده وهو العمى ، والدليل على ذلك أن العمى نقص والنقص على الله تعالى الذى أوجد هذا العالم مكملا وزين بعض أنواعه بنعمة البصر محال ، وإذا استحال عليه تعالى العمى وجب له البصر وهو المطلوب .

(الصفة الثانية عشرة : الكلام) يجب لله تعالى صفة الكلام وهي : قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت : تدل على الواجبات والمستحيلات والجائزات ما كان منها وما يكون يفهم بها سبحانه ما يريد إفهامه لأحد عباده ، ويستحيل عليه ضده وهو البكم : والدليل على ذلك أن البكم نقص والنقص على الله تعالى إله العالم الذى أوجده وكمل بعض أنواعه بالنطق والكلام

مُحال وإذا استحال عليه سبحانه البكم وجب له الكلام وهو المطلوب .

وتوضيح دليل وجوب صفة السمع والبصر والكلام له تعالى واستحالة أضدادها وهي : الصمم والعمى والبكم بنوع بسط أن نقول : إن الصفات التسع التي تقدم إثبات وجوبها له تعالى واستحالة أضدادها : وهي أي تلك الصفات الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث وقيامه بنفسه والوحدانية والإرادة والقدرة والعلم وإن كان عليها مدار الألوهية ، ووجود إله متصف بها يكفي في توجيه وجود هذا العالم ويقنع العقل السليم ، لكننا إذا تأملنا بعد ذلك في شأن الإله سبحانه وفي بديع مصنوعاته وما احتوت عليه من كمال الاتقان والإحكام ، بحيث أنه سبحانه أعطى كل شيء كماله وكل ما يقوم بوجوده ويصلح لشأنه ، نجزم بأنه إذا كانت مصنوعاته في هذا الكمال فمن المستحيل أن يكون هو سبحانه ناقصاً لأننا في جميع ما نتصوره لا نجد الشيء يوجد مثله فضلاً عن أن الناقص يوجد ويبتدع الكامل ، أو أن الكامل يوجد أكمل منه ، هذا الإنسان هو أعلم الحيوانات وأقدرها في الصناعة مهما صنع وابتدع ، فإنه لا يقرب في صنعه من الكمال الذي هو قائم فيه فضلاً عن أن يصنع مثله أو أكمل منه فلا يقدر على صنع نبات فضلاً عن صنع حيوان أو إنسان بل لو سقطت شعرة من جسده لا يقدر على إعادتها كما كانت وما تراه يجري على يده من ظهور النبات والحيوان فإنما هو بمباشرته الأمور التي جعلها الله تعالى أسباباً عادية لتولد النبات أو الحيوان ، فتراه يضع البزر في الأرض

ويعرضه للحرارة ويسقيه الماء فينبت منه النبات وهو لا يدري كيف نبت وحدثت فيه سائر خواصه من اللون والطعم والرائحة وغير ذلك ، وكذلك يضع بيض الطائر فى الحرارة فيتولد منه طائره وهو لا يدرى كيف تكون ذلك الطائر وشق سمعه وبصره وتصور لحمه ودمه وسائر أعضائه ، وفى هذا بيان ظاهر أن الإنسان لم يصنع النبات والحيوان ، وإنما تسبب فى صنعهما مع جهله بكيفية نشأتهما عن أسبابهما ، وإله العالم هو المنفرد بصنعهما جل وعز .

فعلى جميع ما تقدم نجزم بأن هذا الاله الذى أوجد العالم من العدم ونوع منه الأنواع التى تحار فيها الأفهام وكمل بعضها بالسمع والبصر والكلام يجب أن يكون له مرتبة الكمال فى صفاته التى ثبتت لدينا بالدليل العقلى وفى كل صفة كمالية تليق به تعالى وإلا كان دون مصنوعاته وذلك خلاف ما يصدق به العقل ، فنعتقد أنه سبحانه وتعالى سميع بصير متكلم ، بل متصف بكل صفة كمال تليق بشأن الألوهية ، ويستحيل عليه تعالى الصمم والعمى والبكم ، وهو الذى أبدع السمع وأنار البصر وأطلق اللسان بالكلام ، كما يستحيل عليه تعالى أن يكون ناقصا فى صفة كمالية وقد أوجد فى مصنوعاته كل كمال .

هذا ويسوغ لنا معشر المسلمين أن نكتفى فى اعتقاد ثبوت هذه الصفات الثلاث وهى : البصر والسمع والكلام له تعالى على الدليل السمعى من نحو قوله تعالى (وهو السميع البصير) وقوله (وكلم الله موسى تكليما) ونخرج بذلك عن خطة التقليد كما هو مقرر

(الصفة الثالثة عشرة : الحياة) يجب لله تعالى صفة الحياة وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، تصحح عقلاً اتصافه بصفاته الجليلة : من نحو القدرة والإرادة والعلم ، ويستحيل عليه تعالى ضدها وهو الموت ، والدليل على ذلك أنه لو كان ميتاً لما صح اتصافه بصفاته التي قام الدليل على وجوب اتصافه بها : من نحو القدرة والإرادة والعلم ، لكن قام الدليل على وجوب اتصافه بها ، فمن المحال أن يكون سبحانه وتعالى ميتا ، وإذا استحال عليه الموت وجب له الحياة وهو المطلوب .

الفصل الثالث

في بيان أن من صفات الله تعالى — التي تقدمت — ما يتعلق بالأشياء ، ومعنى تعلقها : وأن منها ما لا يتعلق بشيء

اعلم أن صفات الله تعالى الثلاث عشرة التي تقدم لنا إقامة الدلائل على وجوبها له تعالى ، واستحالة أضدادها ، منها ما لا يتعلق بشيء وهي سبع صفات : الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث وقيامه بنفسه والوحدانية والحياة ، ومعنى عدم تعلقها بشيء أنه لا يكون بها تخصيص الأشياء ولا إيجادها ولا كشفها ولا الدلالة عليها كما يكون للصفات الآتية ، ومنها ما له تعلق بالأشياء وهي ست صفات له تعالى وهي : الإرادة والقدرة والسمع والبصر والعلم والكلام .

أما الإرادة والقدرة فيتعلقان بالجائزات فقط ولا يتعلقان

بالواجبات والمستحيلات . فالإرادة تتعلق بالجائزات تعلق تخصيص . فيخصص الله تعالى بها فى الأزل الجائز ببعض ما يجوز عليه ، مثلاً يخصص الله تعالى فى الأزل زيداً بأنه يوجد أم لا ، وبأنه إذا وجد يكون على صفة كذا فى الزمن الفلانى والمكان الفلانى والجهة الفلانية من الأرض وهلم جراً ، وبهذا التخصيص يجب أن يكون هذا الجائز على ما خصصه الله تعالى به بإرادته ويستحيل أن يكون بخلاف ذلك ، لأنه لو كان بخلاف ما أراده الله تعالى فيه لزم أن يكون الله تعالى كارهاً مقهوراً يحصل فى ملكه ما لا يريده وهى حالة لا يرضى بها المخلوق المملوك فما بالك بالخالق ملك الملوك سبحانه وتعالى : والقدرة له تعالى تتعلق بالجائزات تعلق تأثير بإيجاده أو بإعدامه على طبق ما تعلقت به الإرادة فى الأزل ، مثلاً إذا تعلقت إرادته تعالى فى الأزل بإيجاد زيد على صفة كذا فى زمن كذا فى مكان كذا فإذا جاء الزمن الذى تعلقت إرادته تعالى بإيجاد زيد فيه تعلقت قدرته تعالى بإيجاده فيوجده سبحانه فيه بقدرته على الصفة التى خصصه بها فى المكان الذى خصصه له بإرادته ، وكذلك إذا تعلقت إرادته تعالى بإعدام عمرو على وجه مخصوص تعلقت قدرته تعالى بإعدامه ، فيعدمه سبحانه بقدرته على طبق تعلق الإرادة بدون تخلف ، وإلا لزم تخلف إرادة الله تعالى وهو محال كما تقدم قريباً .

وإذا لم تتعلق كل من إرادة الله تعالى وقدرته لا إيجاداً ولا إعداماً بالواجبات : كذاته تعالى وصفاته وملازمة الجرم

للحيز، ولا بالمستحيلات: كالشريك له تعالى والجمع بين النقيضين كَكون زيد موجوداً معدوماً فى آن واحد، فلأن الواجب حاصل حتماً ولا يمكن خروجه عن الوجود إلى العدم، فلا تتعلق به الإرادة والقدرة لا إيجاداً لأن ذلك تحصيل حاصل وهو محال، ولا إعداماً لاستحالة عدمه وخروجه عن الوجود، ولأن المستحيل معدوم حتماً ولا يقبل الوجود فلا تتعلق به الإرادة والقدرة لا إعداماً لأن ذلك تحصيل حاصل وهو محال، ولا إيجاداً لاستحالة وجوده وخروجه عن العدم. وعلى تقرير هذا المقام لو سأل سائل وقال: هل يقدر الله تعالى على إعدام الواجب الفلانى أو على إيجاد المستحيل الفلانى كشريكه تعالى؟ فالجواب المقترن بالأدب أن نقول: إن البرهان قد دل على أن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالواجبات ولا بالمستحيلات لا إيجاداً ولا إعداماً، وما ذكرت أيها السائل فهو من الواجبات أو من المستحيلات وقدرة الله تعالى لا تتعلق بهما، ولا نقول: إنه تعالى لا يقدر على ذلك لأن هذا من سوء الأدب فى جانب الحضرة الإلهية ويوهم العجز عليه تعالى وتقدس.

وأما السمع والبصر له تعالى فيتعلقان بجميع الموجودات سواء كانت واجبات أو جائزات تعلق انكشاف، ولا يتعلقان بالمعدومات سواء كانت مستحيلات أو جائزات: فيرى سبحانه وتعالى ذاته الكريمة وصفاته ويسمع كلامه كما أنه يرى ويسمع كل مرئى ومسموع جائز من مخلوقاته، فيرى الذرة فى الليلة الظلماء

ويسمع صوت مشيها على الصخرة الصماء . لأن سمعه وبصره تعالى ليس كسمع الحوادث وبصرهم الحادثين الناقصين المتوقف إدراكهما على شروط وأسباب عادية .

وأما علمه تعالى وكلامه سبحانه فيتعلقان بالواجبات والمستحيلات والجائزات الموجودات منها والمعدومات . أما علمه فيتعلق بهذه المذكورات تعلق انكشاف ، فيعلم الله تعالى بعلمه الواجب وأنه واجب وذلك كذاته المقدسة وصفاته ، ويعلم بعلمه المستحيل وأنه مستحيل وذلك : كالشريك له تعالى ، ويعلم الجائز وأنه جائز سواء كان موجوداً أو معدوما سيوجد أو لا يوجد فيعلمه سبحانه على ما هو عليه ولا يعزب عن علمه سبحانه شيء من كلي أو جزئي في الأرض أو في السماء ، فيعلم عدد الرمال وقطرات الأمطار وورق الأشجار وذات الكائنات ولا نهاية لمعلوماته سبحانه .

وأما كلامه تعالى فيتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق دلالة ، فكلامه سبحانه الذي ليس بحرف ولا صوت يدل على كل واجب ومستحيل وجائز موجود أو معدوم بكل ما هو عليه ، ويفهم الله تعالى بكلامه كل واحد منها لمن أراد إفهامه من عباده كملائكته ورسله عليهم الصلاة والسلام .

الفصل الرابع

في بيان أنه يجب أن نعتقد بجميع صفاته تعالى وأسمائه التي ورد الشرع بما يفيد ثبوتها له تعالى، مع بيان أن أسمائه تعالى توقيفية.

اعلم أنه لما ثبت عندنا معشر المسلمين أن سيدنا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم هو رسول الله تعالى بدليل ما ظهر على يديه من المعجزات الخارقة للعادة التي كان ظهورها على يديه تصديقا له من جانب الله تعالى بدعوى الرسالة، وحيث ثبت أنه رسول الله يجب له الصدق في جميع ما يخبر به، ويستحيل عليه الكذب كما سيأتي برهان جميع ذلك في الباب الثاني إن شاء الله تعالى، وجب علينا وصح لنا تصديقه في جميع ما جاء به في نصوص شريعته من إثبات الصفات لله تعالى، وقد جاء في نصوص شريعته من القرآن الشريف وحديثه المنيف ما يفيد وصف الله تعالى بالصفات التي تقدم ذكرها مع إثباتها لله تعالى بالدليل العقلي واستحالة أضدادها وهي التي عليها مدار الألوهية وعظمة شأن الربوبية، وجاء أيضاً في نصوص الشريعة ما يفيد وصف الله تعالى بصفات أخرى كالتة: من أنه تعالى عدل حكيم صمد هاد خالق رزاق قيوم إلى أمثال ذلك مما طفحت به نصوص الشريعة المحمدية، فيجب الإيمان بجميع ما ورد له تعالى من الصفات العلية في نصوص الشريعة الأحمدية لأن المخبر بها وهو رسول الله صادق مجزوم بصدقه بما قام من دلائل رسالته من عند الله تعالى.

ثم كما جاءت نصوص الشريعة بإثبات الصفات له تعالى كذلك

جاءت بإثبات أسمائه سبحانه التي سمى بها نفسه ومنها لفظ (الله) الذي هو الاسم الخاص به تعالى ، وهذا اللفظ الكريم ، كما أن اللغة العربية تطلقه على الإله سبحانه وتعالى قبل إرسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كذلك جاءت الشريعة بإطلاقه عليه تعالى فتسميته تعالى به تسمية شرعية نعتمد بها على نص الشريعة وهكذا بقية أسمائه تبارك وتعالى ، فتسميته بكل منها شرعية ولا يجوز تسميته باسم لم يرد به الشرع الشريف ، وهذا معنى قول علماء الإسلام : إن أسماء الله تعالى توقيفية ، أي أن إطلاق كل اسم منها عليه بتوقيف الشرع الشريف ولا يجوز إطلاق اسم عليه تعالى بدون توقيفه .

الفصل الخامس

في بيان ما ورد في نصوص الشريعة نسبته إلى الله تعالى مما يوهم التشبيه والمماثلة للحوادث ، وبيان كيفية اعتقاد أهل السنة والجماعة في ذلك ، وطريق تأويله عند الحاجة إليه

اعلم أنه كما ورد في الشريعة المحمدية ما يفيد وصف الله تعالى بصفات كمالية ، منها ما قامت الدلائل العقلية على ثبوته له تعالى ، ومنها ما ليس كذلك لكن لما أخبر به الرسول المبرهن على صدقه بالمعجزات ولا مانع عقلا يمنع من ثبوته له تعالى آمنا وصدقنا به وذلك مثل كونه تعالى قابل التوبة من عباده وأنه يثيب الطائع ويعذب العاصي كذلك ، وقد ورد في نصوص الشريعة الغراء نسبة أشياء لله تعالى توهم ظواهرها مماثلته ومشابهته للحوادث وسميت

تلك النصوص بالمتشابهات والحال أن الدليل العقلي قد قام على وجوب مخالفته تعالى للحوادث واستحالة مماثلته لها، وكذلك الدليل النقلي ورد بذلك . قال الله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فنعتقد في تلك النصوص المتشابهات أن لها معاني صحيحة تليق به تعالى خالية عن استلزام مماثلته تعالى للحوادث وليست هي المعاني المتبادرة من ظواهر تلك النصوص المستلزمة للمماثلة ، ونفوض علم حقيقة تلك المعاني الصحيحة إليه سبحانه فنكون بذلك الاعتقاد منزهين له تعالى عن مماثلة الحوادث ومفوضين له في علم ما أراد من تلك النصوص ، وهكذا كان اعتقاد السلف الصالح رضي الله عنهم . لكن لما ظهر بعض الفرق المبتدعة وتمسكوا بظواهر تلك النصوص المتشابهات واعتقدوا المعاني المتبادرة منها المستلزمة لمماثلته تعالى للحوادث ، وخيف على اعتقاد بعض الضعفاء في الدين من سريان بدعتهم إليه تأول العلماء المتأخرون هذه النصوص المتشابهات تأويلات مناسبة موافقة للأدلة العقلية على ما ذكر في كتب التفاسير وشروح الأحاديث ، وهم في تلك التأويلات عند التصدر لرد مذهب المبتدعة أو تثبيت عقيدة الضعفاء كأنهم يقولون ما دامت تلك النصوص المتشابهات محتملة لمعان صحيحة مناسبة موافقة للأدلة العقلية جارية على قواعد اللغة العربية فالحمل عليها أحتمالاً يحصل التوفيق بينها وبين الأدلة الدالة على وجوب مخالفته تعالى للحوادث واستحالة مماثلته تعالى لها ونسلم من اعتقاد ما ربما يخرج به المرء

عن الإيمان ، والعياذُ بالله تعالى — وبَيان الطَريقتين فى ذلك أنه قد ورد قوله تعالى فى القرآنِ المجيد (الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (ويبقى وجه ربك) وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) وقوله تعالى (وجاء ربك) إلى غيرِ ذلك من الآياتِ ، وورد فى الحديثِ الشريفِ قوله عليه الصلاة والسلام «رأيت ربى فى أحسن صورة» وقوله عليه الصلاة والسلام «إنّ الجبار يضع قدمه فى النارِ» وقوله عليه الصلاة والسلام «ينزل ربكم إلى سماء الدنيا» إلى غيرِ ذلك من الأحاديثِ ، فالطريق الأسلم الذى درج عليه السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم أنْ نقول فى هذه النصوصِ : إنّ لها معانى غير ما يتبادر منها وهى صحيحة موافقة للأدلة العقليّة والنقلية الدالة على وجوبِ مخالفته تعالى للحوادث ، وإنا نؤمن بها ، ونفوّض معرفة حقيقتها إلى علمِ الله تعالى ، وهذا القدر يكفى فى صحة الإيمانِ فاستواؤه تعالى على العرشِ هو صفة من صفاته تعالى اللائقة به ليس كاستواءِ الحادثِ المستلزم للجسميّة والجهة ، والنزول إلى سماء الدنيا صفة من صفاته تعالى اللائقة به ليس كنزولِ الحادثِ المستلزم الانتقال من حيز إلى حيز ، والمجىء كذلك ، ونقول أيضاً : إنّ له تعالى يداً ويميناً وقدماً ليست كأعضائنا ، بل هى على ما تليق به سبحانه لا تستلزم التجزؤ والمقدار ، وهو سبحانه أعلم بحقيقة تلك المعانى التى أرادها من تلك النصوصِ ، وهكذا القول فى كل نص متشابه .

وإذا تصدّينا لرد مذهب المبتدع المدّعى مماثلته تعالى للحوادث

تمسكاً بظواهر هذه النصوص ، أو أردنا تثبيت عقيدة الضعفاء في الدين ، فنقول على طريق التأويل : إن تلك النصوص تحتمل معاني غير ما يتبادر منها لا تستلزم مماثلته تعالى للحوادث وبالحمل عليها توافق الأدلة العقلية والنقلية الدالة على تنزيهه تعالى عن المماثلة ونأمن بذلك من الخطأ في الاعتقاد الذي ربما يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله تعالى . وبيان ذلك أنه يحتمل أن المراد من الاستواء على العرش هو الاستيلاء والقهر كما قال الشاعر العربي :

قد استوى بشر على العراق *

أي استولى ، والمراد بذلك بيان عظمته تعالى ونفوذ حكمه على كل شيء من هذا العالم ، ويحتمل أن المراد بالنزول إلى سماء الدنيا هو الإقبال على عباده ، وقد ورد في اللغة العربية النزول بمعنى الإقبال : فالمعنى أن الله تعالى يقبل على عباده في ذلك الحين فعبّر عن ذلك الإقبال بالنزول إلى سماء الدنيا ، ويحتمل أن المراد بالمجيء هو الإقبال أيضاً وأن المراد وجاء أمر ربك وسلطانه ، ويحتمل أن المراد بالوجه الذات فإنه يطلق ويراد به الذات . وأن المراد باليد واليمين القدرة وكل ذلك له شواهد من استعمالات اللغة العربية التي جاء القرآن والأحاديث النبوية بها ، وهكذا يجري التأويل في كل ما ورد من المتشابهات فليس شيء منها إلا وقد وجد له العلماء تأويلاً مناسباً موافقاً للأدلة العقلية على قانون اللغة العربية وقد أفردوا لذلك كتباً تكفلت ببيان ذلك ، فعلى كل مكلف أن يؤمن بجميع ما ورد من تلك النصوص المتشابهات ، ويعتقد أن

لها معانٍ صحيحة لائقة بجنابه تعالى غير مستلزمة لمماثلته تعالى للحوادث ، ويفوض معرفة حقيقتها المرادة منها إلى علم الله ، وإذا احتاج إلى التأويل فى دفع مذهب مبتدع أو لرفع الوسوسة عن قلبه ولم يكن أهلاً للتأويل فليرجع إلى العلماء الأعلام ويفهم منهم تأويل ما أراد تأويله ولا يستقل به وهو ليس أهلاً له خشية أن يقع فى خطأ يدخله فى البدعة أو فى الكفر ، نسأل الله تعالى الحفظ والسلامة

وليعلم أن النصوص المتشابهات التى مر الكلام عليها فى هذا الفصل هى الآيات القرآنية وأحاديث الرسول الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام . وأما ما ينسبه إلى الرسول عليه السلام بعض أهل الأخبار ولم يثبت عنه عليه الصلاة والسلام بنقل العدول فهذا وأمثاله لا يجب علينا التصديق به فضلا عن الاحتياج إلى تأويله ، والله تعالى أعلم .

الفصل السادس

فى بيان ما يجوز فى حق الله تعالى
وبيان مسائل خالفنا فيها أهل البدع

قد تقدم بيان ما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه سبحانه ، فلنشرح الآن فى هذا الفصل ما يجوز فى حقه تعالى فنقول : —

يجوز فى حقه تعالى فعل كل جائز أو تركه مهما كان الجائز عظيما دقيق الصنعة . فالله تعالى قادر على صنعه والدليل على ذلك من نصوص الشرع الشريف قوله تعالى (والله على كل شئ قدير)

والدليل عليه عقلاً : أن الله تعالى تام القدرة كامل العلم ، وأن كل جائز هو قابل للوجود والعدم ، فيكون الله تعالى قادراً على إيجاده وإعدامه ، والذي يوضح جواز فعله تعالى لكل جائز أو تركه مهما كان الجائز عظيماً دقيقاً ما نشاهده في هذا العالم : من عظائم مصنوعاته تعالى ، وغرائب مبتدعاته ، فإنه قد تصرف فيها بقدرته إيجاداً وإعداماً ، نعم قد جرت عادته تعالى بأن لا يوجد خوارق العادات ، أي الأمور العظيمة التي لم تجر العادة بوجودها إلا على أيدي رسله عليهم الصلاة والسلام معجزة لهم ، وتصديقاً لدعواهم الرسالة ، أو على أيدي أوليائه كرامة لهم ، أو على أيدي بعض عباده معونة لهم ، أو استدراجاً ، أو خذلاناً ، كما سيأتي تفصيله وكل ذلك في النادر .

ومن الجائز في حقه تعالى خلق الخير والشر ، ولا يكون ذلك منه قبيحاً ، خلافاً لبعض المبتدعة ، لأنه تعالى فاعل مختار ، يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وربما يكون الشيء حسناً في نفسه وإن خفي علينا حسنه وعددناه شراً ، على أن الشر يكون شراً بالنسبة إلينا ، ولذلك نؤاخذ بكسبه ، وبمخالفة النهي عنه ، ويكون فعله منا قبيحاً ، وأما بالنسبة إليه تعالى فلا يقال : إن الشيء الفلاني خير والشيء الفلاني شر ، لأنه سبحانه لا ينتفع بشيء ، ولا يتضرر من شيء ، وأيضاً إنه كثير ما يقع الشر في الكون ، فلو كان بغير خلقه وإرادته تعالى لزم أن يقع كثير في ملكه ليس بخلقه ، ولا بإرادته ، وهو عجز وقهر على منصب الألوهية ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن الجائز عليه تعالى أن يفعل غير الصالح وغير الأصلح في حق عباده ، ولا يجب عليه أن يفعل ذلك في حقهم خلافا لبعض المبتدعة ، لأنه لو وجب عليه تعالى فعل الصالح والأصلح لعباده لما خلق الكافر الفقير المعذب في الدنيا بالفقر وفي الآخرة بالعذاب الأليم ، لأن الأصلح له عدم خلقه وإن خلق فالأصلح له إماتته صغيرا أو سلبه عقله قبل بلوغ سن التكليف ، لكنه تعالى خلق ذلك الكافر ولم يفعل الأصلح في حقه . فظهر أنه تعالى لا يجب عليه فعل الصالح والأصلح لعباده ، بل هو الفاعل المختار الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ومن الجائز في حقه تعالى عقلا أن يعذب المطيع وينعم العاصي ولا يقبح ذلك منه ، لأنه مالك مطلق فاعل مختار ، ولأنه إن أثابنا فبفضله وإن عذبنا فبعدله . ولا تأثير للطاعة في وجوب الثواب ، ولا تأثير للمعصية في وجوب العذاب ، لكن لما ورد في نصوص الشريعة المحمدية وعده سبحانه وتعالى للمطيع بالثواب ووعيده للعاصي بالعقاب : صار واجبا شرعا أن لا يتخلف وعده ولا وعيده ، لأنه لو تخلف ذلك لزم الكذب والخلف في خبره تعالى وذلك محال ، لكن الوعد بالثواب يجب شرعا أن لا يتخلف في حق أحد من المطيعين لأنه نقص والنقص عليه تعالى محال .

وأما الوعيد بالعقاب فقد أخرج منه المؤمنون المغفور لهم بالدلائل الدالة ، على أن الله تعالى قد يغفر لبعض عباده الذنوب .

وأما الكفار فلا يتخلف الوعيد في حقهم للأدلة الشرعية الدالة

على تحتم خلودهم فى النار . وأما المؤمنون غير المغفور لهم معاصيهم فلابد من نفوذ الوعيد فى حقهم ولو بتعذيب واحد منهم ، لئلا يلزم الخلف فى خبره تعالى .

ومن الجائز عليه تعالى عقلا أن ينظر بالأبصار ، لأنه سبحانه وتعالى موجود وكل موجود يصح أن يرى ، فهو سبحانه يصح أن يرى ، لكن لم تقع رؤيته تعالى فى الدنيا لغير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ورؤيته سبحانه فى الآخرة للمؤمنين واجبة شرعا باتفاق أهل السنة والجماعة لنص القرآن والأحاديث الشريفة ولإجماع الصحابة عليها ، لكن رؤيته تعالى بلا كيف وبلا انحصار ومعنى قولنا (بلا كيف) أنها بدون تكيفه سبحانه بكيفية من كيفيات الحوادث من نحو المقابلة للرائى والجهة والتحيز ، لأن الرؤية قوة إدراكية يجعلها الله تعالى فى خلقه لا يشترط فيها عقلا مقابلة المرئى ولا كونه فى جهة وحيز ولا غير ذلك ، وإنما جعلت هذه شروطا عادية : يجوز أن يخلق الله تعالى الرؤية بدونها ومعنى قولنا : إن رؤيته تعالى بلا انحصار أى بدون انحصاره تعالى عند الرائى بحيث يحيط به لاستحالة الحدود والنهايات له تعالى ، ولا تخالف بين وجوب رؤية المؤمنين له تعالى وبين قوله فى القرآن الشريف (لا تدركه الأبصار) لأن معنى إدراك الأبصار رؤيتها على وجه الإحاطة بحيث يكون المرئى متحيزا بحدود ونهايات ، وهذا لا نقول به لأنه محال عليه تعالى . وقد خالف فى جواز رؤيته بعض المبتدعة وتمسكوا بشبه مردودة

عليهم فى الكتب المطولة.

ومن الجائز عليه تعالى إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق فليس إرسالهم واجبا عليه تعالى ولا مستحيلا بل لطف منه تعالى وإحسان ورحمة بمحض الفضل، لما فى إرسالهم من الحكم والمصالح التى لا تحصى: منها معاضدة العقل فيما يستقل بمعرفته، مثل وجود الإله سبحانه وعلمه وقدرته، ومنها استفادة الحكم فيما لا يستقل به العقل مثل المعاد الجسمانى والحساب، ومنها بيان حال الأفعال التى تحسن تارة وتقبح أخرى من غير اهتداء العقل إلى مواقعها، ومنها بيان منافع الأغذية والأدوية ومضارها التى لا تفى بها التجربة إلا بعد أدوار وأطوار مع ما فيها من الأخطار، ومنها تكميل النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة فى العلميات والعمليات، ومنها تعليم الصنائع الخفية من الحاجيات والضروريات، ومنها تعليمهم الأخلاق الفاضلة الراجعة إلى الأشخاص والسياسات الكاملة العائدة إلى الجماعات فى المنازل والمدن، ومنها الإخبار بتفاصيل ثواب المطيع وعقاب العاصى ترغيبا فى الحسنات وتحذيرا عن السيئات، إلى غير ذلك من العوائد. ثم بعد اعتقادنا بجواز إرسالهم فى حق الله تعالى، وأنه ليس بواجب عليه، يجب علينا اعتقاد حصول إرسالهم من لدن آدم إلى رسولنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وسلم، وسيأتى بيان كيفية تفصيل الإيمان بهم عليهم الصلاة والسلام فى الباب الثانى والله الموفق

الباب الثانى

فى بيان الإيمانِ بالرُّسل ، والأنبياءِ ، والملائكةِ ، والكُتُب واليومِ الآخِر . وما يَتبع ذلك ، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

فى بيان الإيمانِ بالرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام

اعلَمْ أنّ الرَّسُول هو : إنسانٌ ذكرٌ حُرٌّ أوحَى الله تعالى إليه بشرعٍ وأمَرَه بتبليغه للخلق ، وإن لم يُؤمَر بالتبليغ يُسَمَّى نبياً فقط . وقد تقدّم أنّ إرسالَ الرُّسلِ من الجائز على الله تعالى ، ولكن قد حَصَل منه تعالى إرسالهم تفضّلا على عبادِه لما فيه من الفوائد الكثيرةِ . والإيمان بالرسل هو : أن نؤمن بأنّ الله تعالى أرسلهم مُبشّرين ومُنذرين وأيّدهم بالمعجزات الخارقة للعادات ، وأن نُؤمِن بما يجبُ لهم ، وما يستحيلُ عليهم ، وما يجوز فى حقّهم عليهم الصلاة والسلام : فيجب لهم الأمانة ويستحيل ضدها وهو الخيانة ، ويجب لهم الصِدق ويستحيل عليهم ضدها وهو الكذب ، ويجب لهم الفطانة ويستحيل عليهم ضدها وهو الغفلة وعدمُ الفطنة ، ويجب لهم تبليغ ما أمرهم الله تعالى بتبليغه للخلق ويستحيل عليهم ضِدّه

وهو كتمان ذلك ، ويجوز فى حقهم الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية ، وكمال الإيمان بما ذكرنا أن يكون مقروناً بالدليل ، فنقول فى بيان ذلك :

يجب للرسل عليهم الصلاة والسلام الأمانة ، وهى العصمة ومعناها حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمعصية ، ويستحيل عليهم ضد الأمانة وهى الخيانة . فهم محفوظون ظاهراً : من الزنا ، وشرب الخمر ، والكذب ، وأمثال ذلك : من المنهيات الظاهرة ، ومحفوظون باطناً : من الحسد ، والكبر ، والرياء ، وأمثال ذلك : من المنهيات الباطنة ، وما أوهم من النصوص الشرعية وقوع المعصية منهم : فمؤول بتأويلات حسنة مذكورة فى كتب التفاسير ، وشروح الأحاديث النبوية ، فعلى المكلف إذا اشتبه بشيء من تلك النصوص فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام أن يرجع فى تأويله إلى العلماء الأعلام ليفهم منهم تأويله ويكون اعتقاده موافقا لاعتقاد أهل السنة والجماعة ، والدليل على وجوب الأمانة للرسل عليهم الصلاة والسلام واستحالة الخيانة عليهم أنهم لو خانوا بفعل معصية لكنا مأمورين به لأنه تعالى أمرنا باتباعهم : فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيل ، والله سبحانه وتعالى لا يأمر بالمعصية .

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام الصدق ، ويستحيل عليهم ضده وهو الكذب ، أما وجوب صدقهم واستحالة الكذب عليهم فيما يبلغونه عن الله تعالى فالدليل عليه أنهم لو كذبوا فى ذلك للزم

الكذب فى خبره تعالى لتصديقه لهم بالمعجزات وهى خوارق العادات التى يجريها الله على أيديهم تأييداً لهم ، لأنها نازلة منزلة قوله سبحانه « صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى » ، وتصديق الكاذب كذب وهو محال عليه تعالى فيكون كذبهم فيما يبلغونه عنه تعالى محالا ، وإذا استحال كذبهم فى ذلك وجب صدقهم فيه وهو المطلوب .

وأما وجوب صدقهم واستحالة الكذب عليهم فى غير ما يبلغونه عنه تعالى فالدليل عليه أنهم لو كذبوا لكان كذبهم خيانة تخالف وجوب الأمانة والعصمة لهم ، وقد تقدم الدليل على وجوب الأمانة لهم ، واستحالة الخيانة عليهم صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين .

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام الفطانة ، وهى التفطن والتيقظ ، ويستحيل عليهم ضدها وهو الغفلة وعدم اليقظة ، والدليل على ذلك أنهم لو لم يكونوا فطناء وكانوا مغفلين لما أمكنهم إقامة الحجة على أخصامهم والمجادلة معهم لإقناعهم بالحق ، وهذا يخالف منصبهم الذى أرسلوا به وهو : هداية الخلق إلى الحق ، فوجب بذلك لهم الفطانة . واستحال عليهم ضدها ، وهو الغفلة وهو المطلوب

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام تبليغهم للخلق ما أمرهم الله تعالى بتبليغه ، ويستحيل عليهم ضده وهو كتمانهم شيئاً من ذلك والدليل على ذلك أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق

لكننا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم وكوننا مأمورين بكتمان العلم باطل، فكتمانهم شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلا فوجب لهم تبليغ ما أمروا بتبليغه واستحال عليهم كتمان شيء من ذلك وهو المطلوب.

وأما الجائز في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام فهو سائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية، وذلك كالأكل. والشرب، وجماع النساء في الحلال، والأمراض التي لا تخل بمنصب الرسالة ولا تكون منفرة للخلق عن الاجتماع بهم والأخذ عنهم. والدليل على ذلك مشاهدة تلك الأعراض بهم وهي لاتخل بمنصب الرسالة، وأما الأمراض التي تخل، أو تنفر عنهم الخلق: مثل الجنون، والاغماء الطويل، والجذام، والبرص، والعمى فهي ممتنعة عليهم ولم يثبت أن شعيباً كان أعمى، وما كان بأيوب من البلاء فقد كان ألما تحت الجلد ليس منفراً، وما اشتهر في قصته من الحكايات المنفرة فهي باطلة.

وأما السهو فممتنع عليهم في الأخبار البلاغيه، أم التي يبلغونها للخلق نحو (الجنة أعدت للمتقين) وفي غير البلاغة أيضاً، نحو قام زيد، وذهب عمرو، لأنه يورث الشبهة لبعض الضعفاء في عموم أخبارهم وهو ينافي منصب الرسالة. وأما السهو في أفعالهم غير البلاغة والبلاغية: كالسهو في الصلاة، فهو غير ممتنع عليهم، وحكمة وقوعه منهم أن يرى الناس كيف يعملون عند حدوث السهو في عباداتهم، لأن دلالة الفعل أوضح من دلالة القول.

وأما النسيان فهو ممتنع عليهم فى البلاغيات قولية كانت أو فعلية ، فالقولية نحو (الجنة أعدت للمتقين) والفعلية نحو صلاة الضحى : إذا أمروا بفعلها ليقتدى الناس بهم ، فلا يجوز نسيان شىء من ذلك قبل تبليغ الأولى بالقول والثانية بالفعل . وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر من جانب الله تعالى لحكمة يعلمها ، وأما النسيان من جانب الشيطان فمستحيل عليهم ، إذ ليس للشيطان عليهم سبيل ، ووسوسة الشيطان لآدم عليه السلام بتمثيل ظاهرى والممتنع لعبه ببواطنهم . والملخص أنه يجوز على ظواهرهم ما يجوز على بقية البشر مما لا يؤدى إلى نقص وإخلال بمنصب الرسالة . وأما بواطنهم فمنزهة محفوظة متعلقة بربهم ، وما يوهم خلاف هذا فمؤول يرجع فى فهم تأويله إلى العلماء الأعلام .

وليعلم أن جميع ما ذكر فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام من الوجوب ، والاستحالة ، والجواز : يلزمنا أن نعتقده فى حق الأنبياء وهم الذين أوحى الله تعالى إليهم بشرع ولم يأمرهم بتبليغه للخلق ، لأنه ربما ترجع إليهم الناس فى الاستفتاء عن أحكام شرائع الرسل قبلهم ، ولأنهم مأمورون أن يبلغوا الخلق أنهم أنبياء ليحترموهم ، ولأنهم يعلمون بما أوحى إليهم .

ثم ليعلم أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل إجمالا ، بأن يؤمن المكلف بكل نبى ورسول لله تعالى وبما يجب لهم وما يستحيل وما يجوز ، والأولى أن لا يعين عدداً مخصوصاً لاختلاف الروايات فى عددهم ، وقد قال تعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم

نقصص عليك) لكن يجب الإيمان تفصيلا بالرسل الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن الشريف ، وقد جمعت أسماؤهم الشريفة في هذه الأبيات .

أسماء رسل الله في القرآن   خمس وعشرون فخذ بياني
هم آدم ، إدريس ، نوح ، هود   يونس ، إلياس ، اليسع ، داود
إسحق ، إبراهيم ، لوط ، موسى   ذو الكفل ، يحيى ، زكريا عيسى
شعيب ، ثم صالح ، أيوب   هارون ، ثم يوسف ، يعقوب
ثم سليمان ، وإسماعيل   محمد ، ختمهم الجليل

الفصل الثاني

في شرح معجزات الرسل التي أيدهم الله تعالى بها ، وبيان طريق وقوعها ، وإقامة الحجة بها

اعلم أنه قد تقدم في هذا الكتاب أن الجائز العقلي هو : ما يقبل الثبوت والانتفاء ، وأن كل جائز فهو داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى مهما كان عظيما ودقيق الصنع . وتوضيح ذلك بعد ثبوت أن الخالق لهذه الكائنات هو الله تعالى ما نشاهده من أعماله في هذه المصنوعات من العظمة والدقة والحكمة .

ولنشر إلى تفصيل بعض ذلك فنقول : لننظر إلى عالم الكواكب وما اشتمل عليه : من العظمة ، والغرابة وعجيب الترتيب والانتظام كما يظهر من كتب علم الهيئة التي تكفلت بشرح حقيقة ذلك ، ولننظر إلى عالم الجويات وما احتوى عليه ، من الهواء ، والرياح ،

والبروق ، والرعود ، والسحاب والأمطار ، والكائنات الجوية التى أفردت بالتأليف ، وصارت علماً واسعاً ، ولننظر إلى الأرض وما اشتملت عليه ، من الجبال ، والأودية ، والكهوف ، والسهول والبحار ، والأنهار والينابيع ، والمعادن ، والكائنات الأرضية : من الزلازل ، والتغيرات العظيمة ، ولننظر إلى عالم المعادن وما فيها وما احتوى عليه من الأنواع المختلفة ، فى الألوان ، والطعوم ، والخواص ، والمنافع ، ولننظر إلى عالم النبات وما فيه من اختلاف الأشجار ، والأزهار ، والأثمار ، المتنوعة فى الألوان ، والروائح ، والطعوم ، والأشكال ، والأقدار والخواص ، والمنافع وغرائب توالده ، ونموه ، وإقامته ، وسائر أحواله التى أفردت بالتأليف وأصبحت علماً من أعظم العلوم . ولننظر إلى عالم الحيوان وما يحويه من العظائم والغرائب : فى اختلافه فى الصغر والكبر ، والقوة والضعف والذكاء والبلادة ، وتباين الأشكال والهيئات والأصناف وما فيه من عجيب التركيب وغريب التأليف وما فى أعضائه من إحكام الصنع ، وإتقان الوضع حتى وفى كل عضو بوظيفته ، وإذا نظرنا فى أنفسنا وما اشتمل عليه الجسد الإنسانى من غريب الصنع وبديع التركيب لأخذتنا الحيرة وأدركتنا الدهشة ، وفى الاطلاع على كتب التشريح الإنسانى وما بينته من أعضاء الإنسان ووظائفها وغرائب أبنيتها وتراكيبها وانتظاماتها ودقيق صنعها عبرة لأولى الألباب .

ومن أغرب ما فى الإنسان حواسه : من السمع ، والبصر ،

والذوق ، والشم ، واللمس وأغربها حاسة البصر وما احتوت عليه من باهر الصنع بوضع طبقات العين وأشكالها وصفاتها وانتظامها وإحكامها على نواميس كونية حتى وفت بوظيفة الإبصار التي تحتار في كيفيته الأفكار ، وتالله إن العلوم التي تكفلت بالكلام على هذه العوالم وشرح حقائقها وأحوالها وإن تكن قد جاءت بكثير من عجائبها مما الاطلاع عليها يرقي الإيمان في القلوب - لمن وفقه الله تعالى - ويشهد لصانعها بعظيم القدرة ، وكمال العلم والحكمة ، لكن ما انطوى عليه من عجائبها ودقائق حكمها وأسرارها هو بحر عجاج لا تدركه العقول ، ولا تفي بالإحاطة به الروايات والنقول ، فسبحان من كانت هذه الكائنات بإرادته وقدرته ، وتدبيره وحكمته فبعد التأمل في حدوث هذه الموجودات وأنه لابد لها من صانع هو رب الأرض والسموات نعلم قطعاً : أن كل جائز عقلاً مهما كان عظيماً جسيماً وغريباً عجيباً فهو داخل تحت تصرف قدرة هذا الإله القادر العليم الحكيم ، ولكن وجدنا أنه سبحانه قد وضع في تكوين هذه الكائنات وتصوير تلك العوالم أسباباً وقوانين جرت عادته تعالى في إحداث هذه الحوادث عندها فجعل مثلاً حدوث النبات بواسطة التراب والماء والحرارة ، وحدوث الحيوان بواسطة انتقال مادته الأصلية من الذكر إلى الأنثى وتنميته في جوف الأنثى بوسائط شتى مع مرور زمن مخصوص على كل من هذين التكوينين ولكن لدى تدقيق النظر والبحث في الأدلة العقلية وملاحظة عظيم قدرته سبحانه وكمال علمه وتدبر عجائب صنعه ظهر لنا معشر أهل السنة

والجماعة أنّ جميع تلك الأسباب والقوانين التى وضعها الله سبحانه ، وجرت عادته فى إحداث الحوادث عندها ما هى إلا عادية ، بمعنى أنّ عادته تعالى جرت بإحداث الحوادث عندها لا بتأثيرها ، وأنّ الزمن الذى خصص لتكونها وحدوثها ما هو إلا عادى أيضاً ، وهو سبحانه وتعالى قادر على إحداث تلك الحوادث بدون تلك الأسباب والقوانين وبدون مرور ذلك الزمن الذى يكون ظرفا لتكونها وحدثها ويظهر ذلك لمن تأمل أن التراب والماء والحرارة لا يظهر فيها أدنى داع لأنّ تصوّر أنواع النباتات من كلّ نوع منها على لون وطعم ورائحة وشكل خاص ، وليس عندها قدرة وعلم وإرادة تؤهلها للتصرف فى أنواع النباتات ذلك التصرف العجب الغريب وأيضاً إنا نجد بعض أنواع النبات مشتملاً على دقائق من الصنعة وغرائب من الوضع قد يحدث فى زمن قصير جداً ، ونجد نوعا آخر بسيط التكوين ليس فيه تلك الدقائق ، ولا يحتوى على تلك الغرائب قد يحدث فى زمن طويل ممتد ، وهذا تنبيه من الحق تعالى على أنّ الزمن ليس شرطا متوقفاً عليه التكوين توقفاً لازماً عقلا ، بل إنّ ذلك الزمن لم يجعل ظرفا للتكوين إلا عادة جرت للحق تعالى من غير احتياج إليه ، وإلا فلو احتيج إليه لكان الشيء الأغرب فى الصنعة أطول زمنا من الشيء الذى يكون دونه فى الغرابة .

وبما تقرر ظهر أنّ الله تعالى الذى أحدث هذه الكائنات قادر على إحداثها بدون تلك الشروط والأسباب والأزمنة الموضوعة

لتكونها ، فيجوز أن يوجد الله تعالى نباتا فى لحظة طرف أو أقل بدون تلك الأسباب التى جرت عادته أن يحدث النبات عندها ، وقادر على إيجاد حيوان كذلك ، وعلى قلب الجماد نباتا أو حيوانا فى لمحة طرف ، وإحداث أعظم من ذلك من خوارق العادات ، ولكن ذلك منه سبحانه لم يكن مطرداً ، بل قد يجريه على يد رسول من رسله معجزة مصدقة له بدعوى الرسالة ، كما قلب عصا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ثعبانا ثم أعادها عصا فى زمن يسير ، وهكذا توجيه جميع خوارق العادات التى نقل لنا وقوعها معجزات للرسل عليهم الصلاة والسلام جرت على أيديهم تصديقاً لهم : مثل انفلاق البحر ، وانشقاق القمر ، وكلام العجماوات ، ومجئ عرش بلقيس فى لمحة طرف ، وبعد ذلك كله فإنك ترى بعض من استولت الغفلة على قلوبهم قد سترت عنهم عظمة مصنوعات الله تعالى المعتادة لديهم وغرابتها لكثرة مشاهدتهم لها ويعجبون من حدوث شئ نادر الوقوع لم تجر العادة فى بروزه لدى حواسهم ، وربما يكون هذا الشئ فى العظمة ، ودقة الصنعة دون ما جرت العادة بحصوله وألفته أنفسهم ، وما ذلك إلا لعدم اعتيادهم على مشاهدة ما ندر وقوعه حتى ربما كذبوا من يخبرهم به أشد التكذيب وإن كان ثقة عندهم ، مثلا تراهم يعلمون أن التراب ينقلب نباتا ، ثم غذاء ، ثم دماً ، ثم نطفة ، ثم بعد انتقاله لرحم الأنثى ينقلب علقة ، ثم قطعة لحم ، ثم تتصور حيواناً سميعاً بصيراً شاما ذائقاً لامساً ، ثم يخرج من بطن الأنثى ضعيف العقل

والقوى . ثم يصير قوياً صلباً ولبيباً حاذقاً وعالماً مدققاً ويقول أنا وأنا ، وما جسده إلا قبضة تراب وسيعود كما كان ومع ذلك ، لا يعجبون من جميع ما جرى فى هذه التحولات والأطوار ، وإذا أخبرهم مخبر أن فلاناً الرجل الصالح قد شفى الله تعالى فلاناً المبتلى بالبرص على يديه بمجرد أنه لمسه ودعا له تجدهم قد عدوا ذلك من المحال وحسبوا الخبر به من خرافات الأقوال ولو كان المخبر من أصدق الرجال والحال أن شفاء ذلك الأبرص على ذلك الوجه ليس بأعظم من تكون الإنسان بتلك الأطوار العجيبة بل دونه فى العظمة بكثير . وليس الفرق بين الأمرين إلا أن الأول قد جرت به العادة والثانى ليس كذلك ، ولكن ما دمنا نعتقد أن الموجد لكلا الأمرين هو الله القادر العليم الفاعل المختار فأى داع يدعو للإذعان بالأول والإنكار للثانى ؟ نعم لو أن الدعوى أن ذلك الرجل الصالح قد أوجد شفاء الأبرص بقدرته كان للإنكار وجه ، وذلك لعدم صلاحية قدرته لإحداث هذا الشفاء ، ولكن الدعوى أن الله تعالى قد شفى الأبرص على يديه كرامة أكرمه بها فلا وجه للانكار ما دام المخبر صادقاً موثوقاً به وسبب ذلك التأثير لله تعالى الذى هو قادر على كل جائز وهذا الأمر كان من الجائزات . إذا أحطت علماً بجميع ما قررناه فاعلم أن الله تعالى لما أرسل الرسل للخلق أيدهم بالمعجزات لتكون دليلا على صدقهم فى دعواهم الرسالة والمعجزة هى أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعى الرسالة من الله تعالى . فالرسول

عندما يدعو القوم الذين أرسل إليهم إلى تصديقه وامتثال الشرع الذى يبلغهم إياه عن الله تعالى لا بد أنهم يريدون منه دليلا على صدق دعواه فيقترحون عليه خرق العادة فى الأمر الفلانى والأمر الفلانى: من نحو انشقاق القمر، وخروج ناقة من الصخر وغير ذلك، فالله سبحانه وتعالى يخرق العادة على يد ذلك الرسول ويوجد ما اقترحه عليه أولئك القوم، وحينئذ يظهر لهم صدقه فى دعواه ويؤمنون به وبما جاء به من عند الله تعالى؛ لأنهم يلزمهم أن يقولوا حينئذ فى الاستدلال: إن هذا الأمر الخارق للعادة لا يقدر على إبرازه للوجود إلا الإله القادر عليه ولولا أن ذلك الرجل المدعى الرسالة صادق لما أبرز الله تعالى على يديه ذلك الأمر الغريب، فإبرازه على يديه تصديق له من جانب الله تعالى بلا ريب. فالمعجزة تكون فى حق ذلك الرسول وفى حق قومه بمنزلة قول الله تعالى «صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى»، ونظير ذلك فى رجل ادعى فى حضرة ملك أنه سفير بينه وبين رعيته الحاضرين فى حضرة الملك وعليهم أن يصدقوه فيما يبلغهم عن ملكهم فطلب منه أولئك الرعايا ما يدل على تصديق الملك له فى تصديق الدعوى فقال إن علامة تصديق الملك لى فى ذلك أنه يقوم الآن عن كرسيه ويخطو سبع خطوات ويفعل ذلك ثلاث مرات على خلاف عادته، فبمجرد سماع الملك ذلك قام عن كرسيه وفعل مثل ما قال الرجل، فلا شك أن القوم الحاضرين يجزمون حينئذ بصدق ذلك الرجل ويعدون قيام الملك بتلك الكيفية تصديقا له فيعتمدون جميع ما يبلغهم ذلك

الرجل عن مَلِكهم ؛ وَمن يقل بخلاف هذا فهو من الحق بمكان أو مكبّل بقيود العناد والخسران . وإذا بلغنا إلى هنا فنقول : —

إن المعجزات التي أظهرها الله تعالى على أيدي الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام هي كثيرة جدّاً ، فلنذكر منها ما اشتهر وذُكِر في القرآن المجيد أو في صحيح الأحاديث النبويّة ، ونشرح توجيه حصول تلك المعجزات على قانون العقل السليم حتى تندفع شبه المبطلين المنكرين لها من أهل الضلال ، ويزداد بذلك يقين أهل الحقّ وعصابة الإيمان ، ولكن بعد أن نتكلّم على أشهر المعجزات المذكورة في القرآن لبعض الرسل كما نفرد فصلاً لمعجزات نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ونتكلم على بعض الطرق التي أوصلت أتباعه إلى الحظوة بتصديقه واتباع طريقه فنقول : —

من المعجزات التي ذُكِرت في القرآن الشريف : معجزة سيدنا موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بانفلاق البحر حين ضربه بعصاه حتى مرّ بنو إسرائيل فيه ونجوا من فرعون ثم أهلك الله تعالى فرعون وقومه بانطباق البحر عليهم عندما أرادوا لحوق موسى وقومه ، فاعلم أنّ من بلغه خبر هذه المعجزة إن كان منكراً لوجود إله العالم — والعياذ بالله تعالى — فهذا يكون الصواب في حقه أن تقام له الدلائل على إثبات وجوده تعالى وإثبات صفاته الجليلة ، ثم بعد ذلك يبين له حال المعجزات ، وإن كان مؤمناً بوجود الخالق سبحانه ففي تصوّر عظمة قدرته وتأمل في

عظائم أعماله ، وتصور أن انفلاق البحر ما هو إلا جائز عقلى من جملة الجائزات الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ؛ لأن العقل يحكم بقبوله للثبوت والانتفاء ولا يلزم من ثبوته محال فلا مانع يمنعه من التصديق بذلك ، ومما يوضح جواز انفلاق البحر أن الماء قابل للانقسام كبقية الأجسام وقابل للتماسك كما يشاهد تماسكه بالجمود بالبرد مثل ما يرى فى الأنهر العظيمة التى تجمد أيام البرد وتمر عليها الحيوانات وإن كان انفلاق وتماسك ماء البحر بتلك السرعة حتى مر بنو إسرائيل بين قطعه ثم رجوعه إلى السيلان سريعا حتى غرق فيه فرعون وقومه أمورا عظيمة تحتاج إلى قدرة تامة ، فالله سبحانه وتعالى تام القدرة فلا يعجزه ذلك ، فنحن معشر المسلمين لما أخبرنا بهذه المعجزة القرآن الكريم على لسان رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى ثبت صدقه لدينا بالبراهين العديدة ، وهى من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى التامة آمنا وصدقنا بذلك من دون شك ولا ريب وكل منصف إذا تأملها لا يجدها من المحالات . والله قادر على إحداثها تأييداً لرسوله ، وحفظا لعباده المؤمنين ، وإهلاكاً لأعدائه الكافرين .

ومن المعجزات التى ذكرت فى القرآن المجيد أيضاً لسيدنا موسى عليه السلام نبع الماء من الحجر عند ما ضربه بعصاه بأمر الله تعالى فقيل : كان حجراً مخصوصاً . وقيل المراد أى حجر كان . وهنا يقال أيضاً : إن من بلغه خبر هذه المعجزة إن كان منكراً

للخالق تعالى فقد ذكرنا ما هو الصواب فى حقه ، وإن كان مؤمنا بوجود الخالق تعالى وتمام قدرته ، وعظيم أعماله ، فيكفيه لتصديق هذا الأمر أن يتصور : أن نبع الماء من الحجر له طريقان جائزان :
الأول أن الله تعالى يخلق ويبرز من العدم مقداراً من الماء يكفى بنى إسرائيل ثم يجعل سبيل بروزه فى مشاهدتهم من الحجر عند ما يضرب به موسى . والثانى أن يحول الله تعالى الهواء ماء ، ويجعل سبيل بروزه فى المشاهدة أيضاً من الحجر وتحول الهواء ماء وعكسه هو من الأمور الجائزة التى دخلت تحت تصرف قدرة الكيماويين كما يعلم من فن الكيمياء ، وفى هذا العام قدروا أن يحولوا الهواء سائلا من السائلات ، فما بالك بقدرة من خلق الكيماويين وجميع أعمالهم ؟ فنحن معشر المسلمين لما أخبرنا بذلك الصادق ، ورأينا أن ذلك من الجائزات الداخلة تحت تصرف القادر سبحانه آمنا وصدقنا به ، وبأن الله تعالى أوجده معجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، وإبقاء لحياة عباده بنى اسرائيل الذين أعوزهم الماء فى التيه .

ومن معجزات سيدنا موسى عليه السلام المذكورة فى القرآن الشريف : انقلاب عصاه ثعبانا كبيراً ابتلع الحبال والعصى الكثيرة التى سحرتها سحرة فرعون ، وخيلتها للناس حيات ، فهذه المعجزة أيضاً يقال فيها : ان السامع بها لم يكن مؤمنا بالخالق تعالى ، وبعظيم قدرته ، فقد تقدم ما هو الصواب فى حقه ، وان كان مؤمنا بالخالق تعالى فيكفيه لتجويز وقوع هذه المعجزة تصوره أن

مصنوعاته تعالى العظيمة : من عوالم النبات والحيوان كلها حدثت بقدرته وتكوينه، وقد حول موادها من صورة إلى صورة، فقلب التراب نباتا؛ والنبات حيوانا، وأن الأسباب التي جعلها في هذا الكون لحدوث هذه الكائنات، والأزمنة التي جعلها ظروفا لحدوثها ما هي إلا عادية، والله تعالى قادر على تلك الأعمال بدون تلك الأسباب، وبدون تلك الأزمنة، وأن الله تعالى قادر على إعدام الأجسام أو تفريقها هباء لا تدركه الأبصار فنحن معشر الأمة المحمدية لما أخبرنا الصادق بحصول تلك المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام. ونحن نعتقد بكمال قدرة الله تعالى عليها، وعلى أعظم منها من الجائزات آمنا وصدقنا بها وقلنا : لا مانع من أن الله تعالى قلب تلك العصا التي هي جسم نباتي ثعبانا عظيما وكبر جسمه بضم بعض الأجسام الأرضية اليه. وبعد أن ابتلع الحبال والعصى أعاده عصا بقدر ما كانت وأفنى الأجسام التي زادها في تكبيره وأجسام الحبال والعصى التي ابتلعها. أو فرق جميع ذلك وصيرها هباء لا يرى ، وكل ذلك أوجده الله تعالى بدون الأسباب والأزمنة العادية التي شرعها في الكون لذلك الصنع : إذ هو قادر على ذلك، وكان خرق العادة في هذا الحال معجزة دالة على صدق رسوله موسى عليه الصلاة والسلام.

ومن معجزات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام التي أخبر بها القرآن المجيد : رفع الطور : وهو الجبل فوق بني اسرائيل حتى قبلوا الميثاق، وهذه المعجزة يسلم بجواز وقوعها من يؤمن بوجود الإله

القادر ، ويتأمل فى أعماله العجيبة ، وأنه كم رفع من أجرام عظيمة جداً وأقامها فى الفراغ ، وإن قيل على مذهب المتأخرين من الفلكيين إن تلك الأجرام قائمة فى الفراغ بناموس الجاذبية ، قلنا : إن من أوجد ذلك الناموس هو قادر على إحداث ناموس نظيره لرفع الطور ، على أن الأسباب التى وضعها سبحانه وتعالى فى هذا الكون ما هى إلا عادية - على ما تقدم بيانه ، فهو قادر سبحانه على إيجاد هذه الكائنات بدون وجود أسبابها ، فنحن معشر المصدقين بالقرآن الكريم قد أخبرنا بهذه المعجزة الصادق ، وهى من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف القادر الذى نؤمن بوجوده وبكمال قدرته ، فنؤمن ونصدق بحصولها بقدرة الله تعالى معجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، وترهيباً لبنى إسرائيل حتى قبلوا الميثاق .

ومن معجزات سيدنا موسى عليه السلام إرسال الجراد والقمل والضفادع ، والدم ، على قوم فرعون ، وإنزال المن والسلوى على بنى إسرائيل فى التيه ، وهذه الأشياء يؤمن بجواز وقوعها من يؤمن بالله تعالى القادر على هذه الأمور وأعظم منها ، وتوضيح جوازها : أنه يشاهد إلى الآن فى هذا الكون إرسال الجراد وغيره من الحيوانات المؤذية : كالديدان ، والفيران على زرع قوم دون قوم ، ويشاهد أن بعض الأقاليم يفسد ماؤها ويورث شربه أمراضاً لأهلها ، وبعد البحث عن سببه يظهر أنه قد تولد فى ذلك الماء حيوانات صغيرة جداً لا تدرك إلا بالمكبرات ، ولعل الدم كان من هذا القبيل ، ويشاهد أيضاً أنه قد يقع عوض المطر أشياء لم

يُعتَدّ وقوعها، ويُعلّل وقوعها أهل البحث بأنّ ريحاً نقلتها من مكانٍ آخر وأنزلتها على آخرين، فما دام الحال أنّ جميع تلك الأشياء من الجائزات عقلاً المشاهد نظيرها فى أيامنا، فما المانع من أنّ الإله سبحانه أوجدها على يد موسى عليه السلام معجزة له، وترهيباً للقبط أعدائه، ورزقاً لبنى إسرائيل الذين كانوا فى التيه يعوزهم القوت، فتفضّل عليهم تعالى بالمنّ والسلوى، فنحن معشر المسلمين نؤمن بحصول جميع تلك الجائزات على يد موسى عليه السلام بخلق الله تعالى معجزة له كما أخبرنا بذلك الصادق.

ومن المعجزات التى ذكرها القرآن الشريف: خروج ناقة من صخرة على يد سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام عند ما طلب منه قومه ذلك حتى يؤمنوا به، فمن يسمع هذا الخبر ويكون مصدّقاً بوجود الإله القادر يكفيه للتصديق بجواز ذلك أن يتصوّر عجائب صنعه تعالى وأنه قادر على قلب التراب حيواناً، وتحويل المواد إلى صور مختلفة، إذ لا مانع من أنّ الله تعالى صوّر قطعة من نفس مادة تلك الصخرة من باطنها بصورة ناقة، وقلبها للحيوانية بصورة النياق، وجعلها حية حسّاسة، ثم فلق الصخرة عنها وأخرجها لقوم صالح معجزة له عليه السلام، فإنّ الأسباب والأزمنة التى جعلها عادته سبحانه فى تكوين الحيوانات ما هى إلّا عادية، وهو قادر على إيجاد الحيوانات بدونها، وكم يوجد فى باطن الصخور حيوانات مثل الدود لا يدرى الباحثون كيف تخلقت داخل الصخر؟ ويوجد حولها نبات دقيق: مثل العفن الذى يظهر على الحيطان الرطبة

تتغذى به ، وكلما رعته نبت غيره . وقد شوهد ذلك ونقله الثقات ، فما دام هذا جائزاً فى مثل هذه الحيوانات فهو جائز فى مثل الناقة ، إذ لا فرق إلا بالكبر والصغر . وهو لا يفيد الاستحالة فى الكبير دون الصغير ، فنحن معشر المؤمنين نعتقد بحصول تلك المعجزة . لأنها من الجائزات الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، وقد أخبر بها الصادق ، فهى : حق وصدق بلا ريب .

ومن المعجزات التى أخبر بها القرآن المجيد : عدم احتراق سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بالنار العظيمة التى ألقاه فيها الملك الكافر الذى حاجه ابراهيم عليه السلام . فمن يكن مؤمناً بوجود الإله القادر ويعتقد أن النار لا تحرق بطبعها ، ولا بقوة أودعت فيها ، بل احراقها هو بخلق الله تعالى ، وعدم احراقها من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف الإله سبحانه ، وإن كان ذلك خلاف العادة ، فلا مانع يمنعه من تجويز وقوع هذه المعجزة ، ومن ينكر وجود الخالق تعالى . ويعتقد أن النار تحرق بطبعها فهذا يكون الصواب فى حقه أن يقدم له أولاً الدلائل الدالة على وجود الإله سبحانه ، وعلى قدرته على كل الجائزات . ويوضح له أن النار ليست محرقة بطبعها بل بخلق الله تعالى الاحراق عند ما تمس شيئاً قابلا للاحتراق ، إذ لا موجد فى نفس حقيقتها يقتضى أن تحرق الأجسام ، لأنه ان قيل : إن موجب إحراقها هو النور الذى فيها وهو مولد الحرارة المحرقة . قلنا : هذا نور الحباحب ، وهو الحيوان الصغير الذى يوجد فى الليل على النباتات وفى مؤخره نور

يسطع ، والمادة التى ينبعث منها ذلك النور مادة حيوانية فسفورية لا حرارة فيها ولا احراق ، وكذلك كثير من المواد الفسفورية كما يعلم من فن الكيمياء ، وإن قيل : إن موجب الإحراق فى النار هو اتحاد العناصر الذى تتكون النار بسببه على زعم الكيماويين المتأخرين ، قلنا : نطلب البيان الكافى ، لم كان هذا الاتحاد موجبا للإحراق دون جميع الاتحادات التى تحصل بين العناصر والأجسام الكيماوية ؟ كما يعلم من فن الكيمياء ، وإن قيل : إن موجب الإحراق هو الحركة المخصوصة للأجزاء الفردة للجسم مع الأجزاء الفردة للأكسجين أحد جزئى الهواء كما يقول أيضا المتأخرون من الكيماويين ، قلنا : نطلب التوضيح الشافى ، لم كانت هذه الحركة موجبة للإحراق دون جميع الحركات التى تحصل بين أجزاء الأجسام المتحدة على قول أولئك الكيماويين ؟ ولم لم تكن حركة أجزاء الجسم الذى ينشأ عنه البرودة المفرطة حتى يجمد بها الماء موجبة للإحراق ؟ ولم خصت الحركة الأولى بالحرارة والإحراق والحركة الثانية بالبرودة والتجميد ؟ فبهذا يظهر أن الخصم لا يسعه إلا أن يقول : لا أدرى إلا أن كلا قد خص بما ينشأ عنه ولابد من مخصص فنقول له : نحن نعلم ذلك المخصص : هو الله تعالى الذى خص ما شاء بما شاء ، فاحراق النار ليس إلا بخلقه وإيجاده ، وليس فى النار شىء يقتضى أن يؤثر بالاحراق ولا بسواه ، بل هى مسخرة تحت تصرفه سبحانه وتعالى ، إن شاء أنشأ عنها الإحراق والإعدام ، وإن شاء أنشأ عنها البرودة والسلام : نعم قد جرت

عادته سبحانه فى هذا الكون أنه جعلها محرقة بخلقه وإيجاده فإذا أراد خرق العادة بعدم خلق احراق فيها فلا مانع يمنعه ولا حجر عليه، وقد أشار سبحانه إلى خرق العادة فيها معجزة لسيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بما تلاه علينا فى القرآن المجيد: من قوله فى خطاب النار: (يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) وهذا كناية عن أنه تعالى لم يخلق فيها الحرارة والإحراق بل خلق ضد الحرارة فيها وهو البرودة وجعلها سلاما وأمانا لا برودة مهلكة، فنحن معشر المؤمنين لما أخبرنا الصادق المصدوق بهذه المعجزة آمنا وصدقنا بحصولها، ولا مانع يمنع من تصديقها، وهى من جملة الجائزات الداخلة تحت تصرف خالق الأرض والسموات.

ومن المعجزات التى ذكرت فى القرآن الشريف: ما جرى على يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من شفاء الأبرص، والأكمه. وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، فمن كان مؤمنا بإله العالم سبحانه، وتصور عجائب أعماله: من تحويل التراب إلى حيوانات متنوعة لا يمتنع من تجويز إحياء الموتى بقدرته تعالى، وشفاء المرضى، وإبراء الأكمه معجزة لسيدنا عيسى عليه السلام. فإن هذه المذكورات من الجائزات العقلية، وهى فى نظر العقل أسهل من خلق الحيوان من التراب، وابرازه سميعا بصيرا، وإن كان كلا الأمرين لدى قدرة الله تعالى على حد سواء، إذ لا يقال فى حقه تعالى: إن الشىء الفلانى سهل والشىء الفلانى أسهل عليه. بل الجميع تحت تصرفه بالسوية، والوسائط التى جعلت أسبابا فى حدوث

مثل هذه المذكورات ما هي إلا عادية . وكذلك الزمان الذى جُعِل ظرفاً لحدوثها ، والله تعالى قادر على خرق العادة وإيجادِ هذه الأمور بدون تلك الأسباب والزمان — كما مر بيانه ، فنحن معشر الموحِّدين قد أخبرنا الصادِق بهذه المعجزات وحصولها على يدِ سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فآمنا بها وصدّقنا .

ومن المعجزات التى ذكرها القرآن الكريم ، وجرت على يد سيدِنا عيسى عليه السلام أيضاً : تصويره من الطين ، كهيئة الطير ونفخه فيه فيصير طيرا بإذنِ الله تعالى ، فما دمنا نعتقد أن الله تعالى هو الذى خلق جميع هذه الحيوانات الموجودة فى الدنيا على تنوّع أنواعِها من الترابِ ، وأن الأسباب التى وضعها لتكوّنها ، والزمن الذى جعله ظرفاً لتصوّرها كل ذلك أمر عادِيّ ، والله تعالى قادِر على إيجادِ ذلك بدونِ تلك الأسباب وذلك الزمانِ ، فلا مانع يمنعنا من تجويز وقوع تلك المعجزةِ الخارقة على يدِ سيدِنا عيسى عليه السلام بخلقِ الله تعالى كما قال سيدنا عيسى عليه السلام (بإذنِ الله) وحيث قد أخبرنا بذلك الصادِق المصدوق فقد آمنا وصدّقنا بحصولِه معجزة مؤيدة لدعوى ذلك الرسول الكريم .

ومن المعجزاتِ التى أخبر بها القرآن الشريف ، وجرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام : نزول مائدة من السماءِ ليأكل منها أصحابه الحواريون رضى الله تعالى عنهم ، وذلك أمر جائز ، إذ لا مانع يمنع العقل من التصديقِ بنزولِ أيّ جسم كان من جهة السماءِ كما نرى الأمطار وبعض أجسام أخرى تخبر بها علماء

الأرصاد ، وما دمنا نعتقد بقدرة الله تعالى على خلق جميع الأجسام كالله سبحانه وتعالى قادر على خرق العادة ، وخلق المائدة وإنزالها من السماء على سيدنا عيسى عليه السلام وأصحابه معجزة له وتأييداً لدعواه ، ونحن آمنا بوقوعها لإخبار الصادق بها .

ومن المعجزات المذكورة فى القرآن الكريم : تسخير الشياطين والريح لسليمان ، وإلانة الحديد لداود عليهما الصلاة والسلام ؛ فكل ذلك من الجائزات العقلية التى لا يحكم العقل باستحالتها داخلة تحت تصرف الإله القادر ، فالشياطين من جملة عبيد الله تعالى قابلون للتسخير مقهورون تحت أمر خالقهم سبحانه، والريح إنما تسييرها وتصريفها فى الأكوان بقدرته عز وجل ، والحديد معدن قابل للإلانة وإن جرت عادة الله تعالى فى إلانته بسبب الحرارة ، ولكن ذلك سبب عادى ، والله قادر على إلانته بدون ذلك السبب ، فلا مانع من إيجاد الله تعالى لهذه الخوارق على يد هذين الرسولين الكريمين معجزة لهما وتأييداً لدعواهما الرسالة ، ونحن معشر أهل الإيمان المصدقين بقدرة الله تعالى العظيم الشأن ، وبجواز هذه الحادثات ، وبصدق القرآن المجيد قد آمنا وصدقنا بحصولها بدون شك ولا ريب ، وهى بالنسبة لأعمال الله تعالى المشتملة على أعجب العجائب وأغرب الغرائب لا يستبعد العقل السليم منها شيئاً ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

وبقيت معجزات للرسل عليهم الصلاة والسلام سنذكر بعضاً من مشهورها فى الفصل الآتى لمناسبة بينها وبين معجزات سيدنا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام .

الفصل الثالث

فى بيانِ مُعجِزات نبِيّنا سيدِنا محمد رسول الله صلى عليه وسلم وبيانِ بعضِ الطُرُق التى كانت بُرهانا على صِدْقِ دعواه

مِن أعظمِ المعجزات التى جاءَ بها سيّدَنا محمد عليه الصلاة والسلام القُرآنَ الشريفُ ، فهو المعجزة الباقية إلى انقضاء الدنيا ، بخلافِ بقيّةِ المعجزاتِ فإنّ كلا منها قد انقضى بحينه . وللشرح هذه المعجزةَ العظيمةَ ، والخارقةَ الجسيمةِ على وجهٍ يَفهمه الخاصّ والعامّ ، ولا يَعتريه شُبهةٌ لِدَى الأفهامِ ، فاعلَم أنّ من حكمةِ الله تعالى البالِغةِ أنه قد يؤيّد رسُلَه بمعجزاتٍ من قَبيلِ ما فاقَ ونَبغَ فيه القوم المُرسَل إليهم حتى تنقطع حجتهم عن رسولهم : بأنا نجهل جِلسَ ما جئتَ به من خارقِ العادةِ فلعلك تعلم طريقاً فى إيجادِه لا نَعلَمُها نحن ولا يكون فى الحقيقة إلاّ أمراً معتاداً . مثلاً عند ما أرسلَ الله تعالى سيّدَنا موسى عليه السلام : كان فَنّ السِحرِ شائعاً فى القِبطِ قومِ فرعون ، ولهم فيه المهارة التامّة ، ويعلمون ما هو المُمكن للبشر معرفته وصَنعه منه وما لا يكون فى طوقِهم ، فلما سحرَ السَحرَة منهم الحبالَ والعصِيَ بأمرِ فرعون ، وصارت تُرى حَيّاتٍ تسعَى ألقى سيّدنا موسى عليه السلام عَصاه باذنِ الله تعالى فقلبها الله تعالى ثعباناً عظيما فابتلعت تلك الحيات الكثيرة ، ثم لما أخذها بيده عادت عصا كما كانت ، فخرّ السحرة ساجدين لِله تعالى ، وآمنوا برسالةِ موسى ، وصبروا على تعذيب فرعون لهم

وقتلهم بالصلب فى جذوع النخل ، وما ذلك إلا أنهم – لمعرفتهم فن السحر ، وعلمهم بمقدار ما يدخل منه فى طوق البشر وما لا يدخل : أيقنوا أن تلك الخارقة وهى انقلاب العصا ثعبانا كبيرا ابتلع الكثير من الحبال والعصى المسحورة على صورة الحيات ثم عاد عصا كما كان ، وتلك الحبال والعصى عدمت وتلاشت من الوجود ، ما هى من نوع السحر ، وليس فى طوق البشر الوصول إلى هذه الدرجة منه فآمنوا بأنها من خوارق العادات التى لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات ، أوجدها معجزة لموسى مؤيدة لدعواه الرسالة . ومن لم يكن من أهل المعرفة فى فن السحر يمكنه الاستدلال على صدق سيدنا موسى عليه السلام بسبب تصديق أولئك السحرة له بأن يقول : إن هؤلاء السحرة لا شك أنهم متمسكون بدين آبائهم وأجدادهم ، ومتعززون بسلطنة فرعون ، ويخافون من مخالفته الهلاك ثم لهم الدراية فى فن السحر وبمقدار ما يدخل فى طوق البشر منه وما لا يدخل ، فلولا أنهم علموا يقينا أن تلك الخارقة التى ظهرت على يد موسى ليست من نوع السحر ولا يدخل فى طوق البشر الوصول إليها لما آمنوا بموسى ، وتركوا دينهم ودين آبائهم ، وزهدوا فى عزة فرعون ، ورضوا بالتعذيب والصلب فى جذوع النخل ، فقالوا لفرعون : (فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) فإيمانهم بموسى مع ذلك كله أعظم دليل على صدقه بدعوى الرسالة ، وأن تلك الخارقة أظهرها الله تعالى على يده معجزة شاهدة بصدقه ،

وأما من لم يرد الله تعالى فيه خيراً كما وقع لفرعون فإنه ضل عن
هذا الاستدلال واتبع طريق الشبهة ، وقال للسحرة : (إنه) يعنى
موسى (لكبيركم الذى علمكم السحر) وهى شبهة باطلة ، إذ لا يخفى
أن موسى من بنى إسرائيل الذين كانوا مستعبدين للأقباط قوم
السحرة أصحاب السلطنة والملك فلا داعى يدعو أولئك السحرة
إلى مخالفة فرعون باتباع موسى ، ولو فرض أنه هو الذى علمهم
السحر كما قال فرعون أيصدق العقل أنهم يقدمون على ذلك لمجرد
تعلمهم منه ، ويقبلون الذلة بعد العز ، والقتل والصلب عوض
الحياة ، وهم عقلاء يميزون الخير من الشر ؟ فلولا اعتقادهم الجازم
بأن تلك المعجزة ليست من نوع السحر ، وهى دالة على صدق
موسى فى دعوى الرسالة ، وأنهم وإن فارقوا عز الدنيا وعدموا
حياتها الفانية ، فسيعوضون بعز الآخرة وحياتها الأبدية ، لما أقدموا
ذلك الاقدام ، وقبلوا ما قبلوا : فشبهة فرعون أضعف من بيت
العنكبوت ، وقد جاء بها : إما تكبراً وعناداً ، وإما جهلاً وشقاء ،
وكذلك لما بعث الله تعالى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كان
فن الطب شائعاً فى بنى إسرائيل ، فكان من حكمته تعالى أن جعل
الكثير من معجزاته عليه السلام من قبيل أعمال أهل الطب ،
فأبرأ على يديه الأبرص ، والأكمه ، وأحيا الموتى : فأهل المعرفة
فى علم الطب لا يحتاجون فى تصديق رسالته إلى أمر صعب ، بل
من الوضح لديهم أن يقولوا : إننا نعلم أن فن الطب ومقدار
ما يمكن الإنسان أن يبلغه فيه من الأعمال وما لا يمكنه ، فيدخل

في طاقة الأطباء الحذاق أن يشفوا الأمراض ، لكنه بمعالجة مخصوصة مع مرور زمان مخصوص ، وأما شفاؤه في الحال بمجرد لمسه ، أو الدعاء له فهذا ليس في طوقهم ، ويمكنهم أن يشفوا مرض الأعين الذي يكون عرضيا ليس مخلا بجوهر البصر ، وأما شفاء الأكمه عديم البصر فهذا ليس في طوقهم ، وإحياء الموتى أيضا ليس في طوقهم ألبتة ، وحيث إن عيسى قد أتى بهذه الخوارق التي ليست داخلة في طوق البشر كما يظهر لنا من الاطلاع على فن الطب فيكون ذلك دليلا على صدق دعواه الرسالة ، إذ أن الخوارق ليست إلا بإيجاد الله تعالى القادر على كل شيء ، أجراها على يد عيسى معجزة له مؤيدة دعواه ، وأما غير أهل المعرفة في فن الطب فلهم أن يستدلوا على صدق عيسى بتصديق هؤلاء الأطباء : نظير ما استدل من آمن بموسى ولم يكن من أهل المعرفة في فن السحر ، لما شاهدوا إيمان السحرة به .

إذا علمت جميع ما قررناه : فاعلم أنه قد نقل إلينا بالتواتر المفيد اليقين ، أي نقل إلينا الجماهير الكثيرة الذين لا تحصى عددهم ، ويحيل العقل تواطؤهم على الكذب ، كإحالته مثلا تواطؤ الناس جميعا على الإخبار بوجود مكة والحال أنها غير موجودة عن الجماهير الكثيرة كذلك ، وهلم جرا عن الجماهير الكثيرة كذلك الذين شاهدوا سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ورأوه رأي العين ، وأحاطوا بأحواله وبما جرى له في مدة حياته مع الأمم ؛ حتى تم له تصديق الألوف من أتباعه بكل ما جاء به أنه بعد ما مضى

له من العمر أربعون سنة بين قومه وقد عرفوه بالصدق والأمانة
حتى دعوه (محمداً الأمين) ولم يجر له فى تلك المدة تعلم القراءة
والكتابة، ولم يجتمع مع أهل هاتين الصنعتين اجتماعاً يمكنه معه
أن يتعلمهما منهم، ويؤهله ذلك لاكتساب جملة معارف الأمم،
وشرائع الأقدمين، وقوانين الممالك، ولم يعثر عليه فى تلك المدة
أنه كان يعانى شيئاً من ذلك، وكذلك لم يجر له فى تلك المدة ممارسة
صناعة الفصاحة، والبلاغة، فلم يكن له عناية بالأشعار، والخطب،
والرسائل العربية: لا قولا ولا رواية، ولم يكن مولعاً بمحاورة
الفصحاء، ومغالبة البلغاء من كل ما يقوى فيه ملكة تينك الصنعتين
الشريفتين، ويؤهله إلى بلوغ الدرجة القصوى فيهما، قام بين
جماهير العالم من عرب وعجم، مع قلة ذات يده، وفقد الناصر
والمعين. وليس فى آبائه سبق سلطنة قد زالت فيظن به أنه يريد
استردادها بالتحيل على الرياسة، فادعى أن الله تعالى قد أرسله إلى
الناس كافة ليبلغهم ما شرعه لهم متكفلا بنجاحهم فى الدنيا
والآخرة، وأن هذا الشرع يناسب زمانه الذى أرسل فيه إلى
انقضاء هذه الدنيا، وهو ناسخ لكثير من أحكام شرائع الرسل
الذين أرسلوا قبله فى الزمان الماضى الذى كانت تلك الأحكام
المنسوخة تناسبه، وأنه ينهاهم عن عوائد وأخلاق قبيحة مضرة
بمصالحهم. ورثوها عن آبائهم، أو زينها لهم الشيطان، وأقبح شىء
منها عبادة الأوثان، والنيران، والأحجار، والأشجار، وأنه
يأمرهم بتوحيد الله تعالى، واعتقاد اتصافه بصفات الكمال،

وتنزهه عن صفات النقصان ، وإفراده تعالى بالعبادة ، وأداء شكره على نعمه التي أنعمها عليهم ، وبالحقيقة ذلك الشكر عائد بالمنافع إليهم : كخضوعهم له في الصلوات الناشيء عنه تهذيب نفوسهم ، ووصلتهم مع خالقهم : وكزيارتهم الأمكنة التي وعدهم عندها غفران السيئات ، إلى غير ذلك من كل ما يجلب لهم الخير ، ويدفع عنهم الضير ، فعند ما سمع منه أولئك الجماهير هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعواه ، وعادوه أشد المعاداة ، وهجره منهم الأهل والخلان ، وكذبه الشيوخ والشبان ، وتحول له الأوداء أعداء ، والموافقون أخصاماً ألداء ، ثم أخذوا في مجادلته ومخاصمته ، وجرهم منهج المجادلة إلى طلب الحجة ، وصار كل منهم يطلب منه برهاناً على صدق دعواه ، ويتمحل له التعجيز في كل ما يهواه ، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم ينصب لهم الدلائل ، ويجيب منهم كل سائل .

ومن أعظم الحجج التي استند في إثبات دعواه إليها ، وجعل معظم اعتماده عليها ، ما تلاه عليهم من مجموع كلام عربي يسميه (قرآناً) ويقول : إنه من عند الله تعالى أرسله به إليهم ، وهو مشتمل على التصريح بأنه رسول الله تعالى إلى الناس كافة ، وأنه صادق في كل ما يبلغه عنه تعالى ، وهو متكفل ببيان الشرع الذي شرعه الله تعالى لهم ، وأنه يتحداهم بأقصر جملة منه يسميها سورة بمعنى أنه يستدل على أنه من عند الله تعالى بعجز فصحاء أهل اللسان العربي وبلغائه عن الإتيان بما يساوي أقصر سورة منه : بفصاحتها وبلاغتها ، وقد كان في الأمة العربية أمراء الفصاحة

والبلاغة العربيتين الرائج فى ذلك الزمان سوقهما بين أهل تلك الأمة ، فكانتا أعظم علومهم ، وأكرم مفاخرهم ، وهم أكثر الناس شاعراً وخطيباً ، وفيهم العالمون بأساليبهما ، الحاملون أعلامهما ، والمحيطون بأسرارهما ، وبما هو فى طوق البشر من مراتبهما ، وبما ليس فى طوقهم . ولم يزل صلى الله تعالى عليه وسلم يصفهم بالضعف والقصور عن معارضة أقصر سورة من ذلك القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، منوهاً بذلك فى كل محفل ، مشهراً له فى كل جحفل ، ومع ذلك يسفه أفعالهم فى عاداتهم وعباداتهم ، ويطعن فى معبوداتهم التى عبدوها بضلالاتهم ، فأخذ علماء الفصاحة والبلاغة منهم وأمراؤهما بينهم يتأملون فى ذلك القرآن ، ويسبرونه بمسبار التبيان ، ويتدبرونه تدبر الناقد البصير عسى أن يتبين لهم طريق لمعارضته ، وإبطال حجته ، فلا وربك ما وجدوا ولن يوجد إلى الآن وبعد الآن إلى انقضاء الزمان ، مع وفور الفصحاء والبلغاء ، وكثرة الأعداء الألداء ، نقول هذا على رؤوس الأشهاد ، والقرآن ينطق به فى عدة آيات ، وهو يتلى فى كل ناد ، لكن ظهر لهم أن هذا القرآن قد بلغ مرتبة فى الفصاحة والبلاغة لا تدركها القوى البشرية ، ولو أن أحداً كابر وعارض لجاء بالغث البارد ، وأصبح سخرية عند الصادر والوارد ، فتحقق لديهم عجزهم عن معارضته ولو بأقصر سورة منه . فأقر من وفقه الله تعالى منهم بعجزهم بل بعجز البشر ، وبأن ذلك دليل على أنه من عند خالق القوى والقدر ، وصدقوا دعوى سيدنا محمد صلى الله

تعالى عليه بالرسالة من الله ، وتركوا عاداتهم القبيحة وعباداتهم الباطلة ، واعتنقوا ما شرعه الله تعالى لهم واجتباه ، ثم إن كثيراً ممن لم يكونوا من أهل الفصاحة والبلاغة : من الأمة العربية أو من سواهم من الأعاجم وجد لهم من الاستدلال بمعجزة القرآن على صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بدعوى الرسالة ، ما يقنع أفكارهم ، ويحملهم على اعتناق دينه الشريف ، وذلك بأن يقولوا أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد قام بدعوى الرسالة : فريداً وحيداً ، مخالفاً لجميع العالم فى عاداتهم وعباداتهم : لا ناصر له ولا معين ، وقد ادعى عجز فصحاء العرب ، وبلغائهم المشهود لهم بكمال الفصاحة والبلاغة ، عن معارضة أقصر سورة من قرآنه الذى جاء به ، وهؤلاء مع تمسكهم بعاداتهم وعباداتهم الموروثة عن آبائهم ، والمألوفة من لدى نعومة أظفارهم ، ومع تعصبهم لعشيرتهم وبنى جلدتهم ، وليس لدى محمد من حطام الدنيا ما يبعث على رغبتهم فى اتباعه ، ولا هو صاحب عصبية وقوة تخيفهم من بطشه لأنه فى أول دعواه عاداه الأهل والأرحام ، بل جميع الأنام ، فقد أقر أولئك الفصحاء البلغاء بعجزهم عن معارضة أقصر سورة من قرآنه ، وأن درجة الفصاحة والبلاغة المحتوى عليها لا تبلغها الطاقة البشرية ، وصدقوا بدعواه الرسالة من عند الله تعالى ، فلولا أنهم قد تحقق لديهم — على ما عندهم من كمال المعرفة فى فن الفصاحة والبلاغة أنهم عاجزون عن معارضة قرآنه ، وأن ذلك القرآن لم يكن الإتيان به فى طوق البشر ، وهو دليل على أنه من عند الله

تعالى لما آمنوا بمحمد وتركوا عاداتهم وعباداتهم الموروثة المألوفة ولا رغبة هناك لهم فى حكام ، ولا خوف من انتقام ، ولا يخفى أن أصعب شىء على العاقل مفارقة دينه الذى يرجو به النجاة فى الدنيا والآخرة . وأصعب شىء بعد ذلك عليه مفارقة عوائده التى ألفها وتلقاها عن أسلافه ، حتى أن البعض وان استشعر برداءة عوائده يصعب عليه مفارقتها ، وتحكم عليه نفسه بملازمتها ، فالعاقل لا يفارق دينه إلا إذا تيقن النجاة فى دين سواه ، ولا يهجر عوائده لا سيما الموروثة المألوفة إلا بسبب قوى قاهر ، فحال هؤلاء القوم الفصحاء البلغاء مع محمد وإيمانهم به على هذا الوجه هو دليل لنا كاف لتصديقنا إياه فيما ادعاه من الرسالة من عند الله تعالى ، وليس إيمان هؤلاء الفرقة بالتقليد للفرقة الذين هم أهل معرفة بالفصاحة والبلاغة ، بل إيمانهم بطريق استدلالى — كما هو ظاهر ، ولهذا الطريق وأمثاله كلفت الأعاجم بالإيمان برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام وإن لم يعرفوا لسانه العربى .

ثم ليعلم : أن فى القرآن استدلالا على صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوى الرسالة من طريق غير طريق اشتماله على الفصاحة والبلاغة اللتين أعجزتا فصحاء العرب وبلغاءهم ، وهو أيضاً معجزة من هذا الوجه خارقة للعادة لا يمكن البشر الاتيان بها ، وبيان ذلك : أنه إذا تأمل فيه أهل الخبرة فى نقد الكلام ، ومعرفة الصفات الفاضلة فيه ، وذوو المعارف والفنون ، والسياسات ، وتدبروا أساليبه ومحتوياته ، ظهر لهم بالنظر الصادق : أن هذا

القرآن قد وُجِدت فيه خواصّ فاضلة ، وصفات كاملة ، لا يُمكن
فى العادة اجتماعها فى مجموع كلامٍ مهما تأنّق فيه واضعه ، واتّسع
اطّلاعه على الماضى والحاضر والمستقبل ، وأحوال الأمم فى شؤونها
أجمع ، والإحاطة فى جميع الفنون ، والآداب . والحِكَم ، والسياسات
وتحرّى فيه عدم المناقضة والتضارب ، وحسن الأسلوب ، مع
الانفراد عن الأساليب المعهودة عند العرب إلا أن يكون القائل :
هو الله تعالى القادر على ذلك كله ، وعلى جمعه فى كلام يريد جمعه
فيه ، وكذلك أنهم يجدون هذا القرآن يخبر عن غيوب مستقبلة تأتى
طبق إخباره : كوعده أتباع محمد عليه السلام بدخول مكة آمنين ،
فجاء الأمر كذلك ، ويخبر عن قصص الأولين وسير المتقدمين كما
هى حكاية من شاهدها وحضرها ، ويخبر عن الضمائر من غير أن
يظهر ذلك من أصحابها بقول أو فعل ، كما يعلم من حوادث حدثت
لبعض أتباع محمد عليه السلام ولبعض أعدائه كما جاء فى التفاسير ،
وكتب الأحاديث ، وهو مع اتساع مجاله فى كل فن : من أخبار ،
وأحكام ، ومواعظ ، وأمثال ، وأخلاق ، وآداب ، وترغيب
وترهيب ، ومدح الأخيار ، وذم الفجار ، وتحذير من قبائح السجايا
ومواقع الدنايا ، وتدبير السياسات ، ومراعاة الأوداء ، ومدافعة
الأعداء ، ومجادلة الأخصام ، وتبكيت الطغام ، وإقامة الدلائل
على وجود البارى تعالى وتوحيده ، وعلى الحشر والنشر ، ودفع
الشبه ، وإزالة الريب ، ووصف دار النعيم وأحوال سكانها ودار
الجحيم وأهوالها ، ووصف عالم السموات ، وما فى العالم العلوى

من الآيات : من كواكب وأمطار وسحائب ، وبروق ، ورعود وعجائب ، ووصف الأرض وجبالها ، وسهولها ، وبحارها ، وينابيعها وأنهارها . وما اشتملت عليه : من نباتات ، وحيوانات ، ومعادن ، وأزهار ، وأثمار ، وأشجار ، وأطيار ، وظلمات ، وأنوار حتى يصح أن يقال : إنه لم يبق علما من علوم الأوائل والأواخر إلا صرح به أو أشار إليه على أساليب متنوعة وطرائق مبتدعة ، لم يقع فيه تناقض ، ولم يتخلله تضارب ، خاليا عن جميع العيوب ، خارجا بحسن نظمه عن مشابهة كل أسلوب ، ليس له مثال يحتذى عليه ، ولا إمام يقتدى به ، فلا هو من نوع القصائد العربية . ولا من الخطب البدوية ، ومع ذلك فهو فى العقول مستحسن . وفى النفوس مستملح . وفى الأذواق مستعذب ، وفى القلوب محبوب ، وللأسماع مألوف ، كلما تكرر حلا ، ومن أى الأفواه سمع علا وغلا ، ولا يصح فى العقل السليم أن تجتمع كل تلك الصفات فيه اتفاقا ، ولا يصدق بالصدفة فى ذلك الفكر الصحيح ، فمن الواجب فى حق هؤلاء المتأملين فيه ، والمتدبرين فيما يحويه ، واللائق بإنصافهم بعد ذلك أن يقولوا : إن الذى ظهر لنا وتحققناه من اجتماع تلك الصفات فى هذا الكلام البديع أنه كلام تعجز عنه قوى البشر ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فإتيان محمد عليه السلام به وهو أمى ، ومن المحال عادة أن يأتى به أكبر العلماء ، وأحذق الفلاسفة ، وأعظم المؤرخين ، وأكبر السياسيين : دليل واضح على أنه من عند الله

تعالى أرسل به محمداً ليكون معجزة له تدل على تصديقه إياه في دعوى الرسالة :

واعلم أن هذا الطريق في الاستدلال على كون القرآن معجزة أيد الله تعالى بها سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم قد هدى الله تعالى به كثيراً من اتباعه عليه الصلاة والسلام ، كما هدى بالطريق الأول ، وهو احتواء القرآن على الفصاحة والبلاغة ، اللتين عجز فصحاء العرب وبلغاؤهم بسببهما عن معارضة أقصر سورة منه . ولم يزل كل من هذين الطريقين سهل السلوك على أهل المعرفة بفن الفصاحة والبلاغة ، وعلى أصحاب المعرفة بفضائل الكلام إلى الآن وبعد الآن ، إلى انقضاء الليالي والأيام ، ومن لم يكن من أهل هاتين الفضيلتين ، فله الاستدلال بخضوع أهلهما ، وتسليمهم بتلك المعجزة الخارقة للعادة ، حتى فارقوا دين آبائهم وعوائدهم . واتبعوا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في دينه وهداه — كما تقدم شرح ذلك قريباً . وبذلك ظهر : أن معجزة القرآن التي أعطيها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، هي معجزة باقية إلى آخر الزمان ، وبقية المعجزات — وإن يكن قد انتفع بها من شاهدها ممن كان في عصر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وانتفع بها من نقلت إليهم بالنقل الصحيح : كأهل الأعصر التي بعد الرسل لكنها لم تبق مشاهدة إلى الآن وبعد الآن ، فلمعجزة القرآن هذه الخاصة من بقاء مشاهدتها على كرور الزمان ، وهذا من جملة ما أكرم الله تعالى به سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم وخصه به .

عن سائر الرسل الكرام ، لكن الهداية بيد الله تعالى يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم

ومن معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التى ذكرت فى القرآن الشريف ، والحديث المنيف : انشقاق القمر فرقتين بطلبه عليه السلام من ربه ، حينما طلب منه المشركون ذلك فرأى انشقاقه الكثير من أهل مكة إسلاما ومشركين ، وورد إلى مكة جماعات من المسافرين ، الذين كانوا بعيدين عنها ، ولكن أفق أمكنتهم مساو لأفقها فأخبروا أنهم رأوا انشقاق القمر فى تلك الليلة ، وعدم رؤية أهل الأرض جميعا لتلك الحادثة لا ينافى وقوعها لأن القمر بسبب اختلاف الآفاق التى تراه منها أهل الأرض لا يظهر على الناس جميعا فى آن واحد بل كل وقت يظهر لأهل أفق ويخفى عن غيرهم ، كما يعلم من فن الهيئة ، وهذه المعجزة من يسمع بها ، ويكون مؤمنا بوجود الإله القادر ، ويتصور أن انشقاق القمر من الجائزات العقلية ، لا يمتنع عن التصديق بوقوعها بعد صحة نقلها . وتوضيح جوازها : أن القمر ما هو إلا جسم من جملة الأجسام القابلة للانقسام والالتحام وكم يوجد فى أرضنا من انشقاق جبال عظيمة ، وحدوث وديان لم تكن ، والتحام جبال كانت منفصلة ، وهذه الحوادث الأرضية وإن تكن جرت عادة الله تعالى بإيجادها بأسباب يحدثها الله تعالى : من نحو الزلازل ، والصواعق ، والأمطار الغزيرة . ولكن تلك الأسباب ما هى إلا عادية ، والله تعالى قادر على إيجاد تلك الحوادث بدون

تلك الآسباب ، كما يُعلم من كمالِ قدرته سبحانه وتعالى ، والقادرُ على التصرّف بهذهِ الأجسامِ الأرضيّة تلك التصرّفات هوَ قادرٌ على التصرّف فى القمرِ بالانشقاقِ ونحوه ، إذ لا فرق بينهِ وبينها فى الجسميّة ، وقبولِ الانشقاقِ والالتحامِ ، إلا أنّ القمرَ أكبر منها والكِبَر والصغر لا دَخل له فى قبولِ ذلك وعدمِ قبوله فى جانب قدرةِ اللهِ تعالى ، ثم إنّ الرواياتِ الصحيحةِ التى نُقِل لنا فيها تلك المعجزة تفيد أنّ القمرَ انشقّ فرقتين فرقةٌ فوقَ الجَبل وفرقةٌ دونه والمرادُ بذلك أنه صار بمرأى الرائى أنّ فرقةً منه فوقَ الجبل أى فى أفقه ، لا بمعنى أنها ركزت على نفسِ الجَبل . وفرقة دونه : أى فى مقابلته ، لا بمعنى أنها تحتَ الجبل ، وهكذا يقولُ الواحدِ منّا : قد رأيتَ القمرَ فوقَ الجَبل وخلفه وفوقَ البحرِ . والحالُ أن القمرَ ليس كذلك . وإنما مرادهُ التعبيرُ عن كيفيةِ الرؤية له فلا يُقال : إنّ القمرَ جسمٌ كبيرٌ جداً دون أرضِنا بقليلٍ على ما يقوله علماء الهيئة ، فلا يمكن أنّ فرقة منه توضَع على نفسِ جَبل صغيرٍ من جبالِ الأرضِ ويَسعها ذلك الجَبل ، وفرقة منه تكون تحت الجَبل بالفعل ، لأنّ هذا غير مُرادٍ — كما علِمتَ ، وإنما نَصّتْ الرواية على كيفيةِ هذه الرؤيةِ لتفيد أنّ الفرقتين من القمر قد تباعَدتا عن بعضِهما حتى لا يكون للمشركين اشتباه فيما لو كانتا متقاربتين فيقولون : إنّ رؤيتنا انشقاقه هي من غلطِ الحسّ والتخيل . الذى لا أصلَ له فى الواقع . ومن المعلوم : أنّ القادِر على شقِّ القمرِ فرقتين . هوَ قادرٌ على تباعدهما ذلك التباعُد ، ثم

غيرهما لبعضهما. ثم من غريب ما يحكى عن بعض شروح المدونة
أن فرقة منه نزلت لجنبه وخرجت من كمه عليه السلام، فهذه
الرواية غريبة لا يجب علينا الإيمان بها، لعدم قوة سندها فلا
حاجة لنا في تأويلها وتطبيقها على قانون العقل، ومع هذا فيمكن
تطبيقها بأن تلك القطعة كانت صغيرة قابلة للنزول والخروج من
كمه، إذ لا صراحة في تلك الرواية بأنها كانت نصف القمر، وهذا
لا استحالة فيه، وقدرة الله تعالى صالحة لذلك، ونحن معشر
المسلمين لما نقل لنا انشقاق القمر معجزة لنبينا عليه الصلاة
والسلام بالنقل الصحيح وهو من الجائزات العقلية الداخلة
تحت تصرف قدرة الله تعالى آمنا وصدقنا بوقوع ذلك
بلا ريب.

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام: وقوف الشمس مدة من
الوقت وردها بعد المغيب، وقد روي هذا في بعض الأحاديث:
وروي أيضاً: أن الشمس وقفت عن المغيب ليوشع بن نون عند
ما كان مع بني إسرائيل يقاتل الجبارين، وكذلك معجزة له أيضاً:
والأحاديث في وقوف الشمس وردها وإن كانت آحادية بمعنى أن
نقلها لم يكن متواتراً قطعي الثبوت بحيث يكفر منكره، لكن
الإيمان بذلك هو الموافق لشأن المسلمين، والأسلم لهم في دينهم،
فنحن نؤمن به ونصدق، ووقوف الشمس وردها بعد المغيب وإن
كان في نفسه أمراً عظيماً جداً، ولكنه من الجائزات العقلية الداخلة
تحت تصرف قدرة الله تعالى، ولا يعد عظيماً بالنسبة لعظيم قدرته

سبحانه ، وتوضيح ذلك ، أنه سواء اعتبرنا أن الشمس هى التى تسير أو أن الأرض هى التى تدور على محورها وتمر بأوجهها على الشمس كما تقول به الهيئة الجديدة ، فكلا الأمرين لم يكن إلا بقدرة الله تعالى ، فهو الذى يسير الشمس أو يدير الأرض مقهورة بقدرته وسلطانه ، والذى يكون قادراً على تحريك كل من هذين الجسمين العظيمين ، هو قادر على إيقافهما ساعة من النهار ، أو على عكس حركتهما مدة من الوقت ثم إعادة الحركة كما كانت ، ولا يلزم على ذلك محال . وإن قيل على فرض تسليم القول بالهيئة الجديدة ، وأن الأرض هى التى تدور لو وقفت الأرض عن حركتها أو انعكست حركتها يلزم أن يبقى ماء البحر آخذاً بحركة الاستمرار فكان يفيض على اليابسة ويغرق أهلها ، قلنا إن القادر على إيقاف الأرض أو عكس حركتها هو قادر على سلب حركة الاستمرار من ماء البحر وجعله تابعاً للأرض فى وقوفها وعكس حركتها فلا يفيض حينئذ على اليابسة ، ولا يلتفت إلى قول بعض الملحدين أنه ليس من حكمة الخالق تعالى أن يوقف ذلك الجسم الكبير المبنى حركته على ناموس عظيم فى الكون وهو ناموس الجاذبية ، كما يقول أهل الهيئة الجديدة لأجل غرض واحد من البشر وهو محمد أو يوشع عليهما السلام ، لأنا نقول : لم يكن ذلك الصنع منه تعالى لأجل مجرد غرض واحد من البشر وهو لحكمة بالغة ، وهى إظهار المعجزة الخارقة للعادة التى ينشأ عنها اهتداء ألوف من الخلق ، ويرجعون بذلك عن الكفر الذى يهلك نفوسهم ، إلى

الإيمانِ الذى يحيىها الحياةَ الأبديّة ، وينشأ عنها تثبيت الوف وتمكينهم بالإيمانِ ممن آمنوا قبلَ ذلك ، ويبقى ذكرها ونقلها بين الخلقِ يتحدّث بها الجيل بعد الجيل ، وينتفع بنقلِها من أرادَ الله تعالى هُداه ، ويتصوّر بها عظمة قدرته تعالى وعجيبَ أعماله . فهذه الحكمةِ العظيمة توازى فى العظمةِ حصولَ تلكَ الخارِقة وتفوقها .

ويليق بها أن تحصلَ تلك الخارقة لأجلها ، على أنّ ذلك الملحد نظر إلى مجرّد عظمةِ تلك الخارِقة ولو قابلها بعظمةِ قدرة الله تعالى لما وَجدها شيئاً يذكر ، وهذه الخارِقة وغرضَ واحدٍ من البشر عند البارِى تعالى على حدّ سَواء فى أنّ كلا منها تحت تصرّفه ومشيئته ، ولا يعظم شىء منهما لدَى عظمته ، وإن كانَ فى نظرِنا القاصِر أننا نجدَ الفرق بينهما عظيما وهما عند الله سيّان فى الجواز والإمكانِ ، ثم إنه فى بعضِ الرواياتِ التى نُقلت تلك المعجزة ما يُفيد أنّ الرسُول طلَبَ وقوفَ الشمسِ أو إعادتها ، فلا يُقال على فرضِ تسليم رَأي الهيئةِ الجديدة بدوَران الأرضِ : أنه كانَ الصواب فى حق ذلك الرسُولِ أن يطلبَ وقوفَ الأرضِ أو عكسَ حركتها عوضاً عن طلَب ذلك فى الشمسِ ؛ لأنا نقول على فرضِ تسليم ذلك ، فلا مانع أن يكونَ الرسول يعلمَ حقيقة الأمر ، ولكنه طلب ذلك فى الشمسِ بناء على الظاهِر والجارى فى رَأى الشعب والمألوف بينهم فى الاستعمالِ ، والله سبحانه وتعالى يعلم المقصود من طلبه ولا يكون ذلك غلطاً من الرسول ، وهكذا نرى أهل الهيئة الجديدة يجرون فى كلامهم على ظاهِرَ ما يبدو لأهل لغتهم ،

ويجري في استعمالهم، فيقولون: طلعت الشمس وغربت، وهم يعتقدون وقوفها وحركة الأرض ولم نسمعهم يقولون: طلعت الأرض أو غربت أو وصلت الأرض لمقابلة نور الشمس أو فارقته، وكل ذلك منهم على حسب الشائع في الاستعمال وظاهر ما تعطيه المشاهدة. إذا علمت ما قررناه، واندفعت عنك تلك الشبه بما حررناه، فاعلم أننا معشر المسلمين قد آمنا بهذه المعجزة، إذ لا مانع يمنع من وقوعها، والله قادر على إيجادها معجزة مؤيدة لرسله الكرام، يهدي ويثبت بها الألوف من الأنام.

ومن معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام التي نقلت إلينا في الأحاديث الشريفة: نبع الماء من بين أصابعه فاستقى منه العدد الكثير، وتكثير الطعام القليل حتى شبع منه الجم الغفير. فمن يعتقد بوجود الإله سبحانه وقدرته على خلق الأجسام وإبرازها من العدم أو قلبها من صورة إلى صورة، فلا مانع يمنعه من تصديق هاتين المعجزتين، وتوضيح ذلك: أنه لا مانع أن الله تعالى عند طلب الناس من الرسول الماء خلق سبحانه الماء، أو قلب الهواء ماء وصار يبرزه للحاضرين من بين أصابع رسوله عليه الصلاة والسلام حتى اكتفى المستقون للماء، وقلب الهواء ماء هو داخل تحت قدرة الكيماويين في كسبهم، وقد ورد قريباً في المجلات العلمية أنهم اكتشفوا قلب الهواء سائلا، فما بالك بقدرة خالق الهواء والماء وأهل الكيمياء؟ وكذلك: لا مانع أن يخلق الله تعالى طعاما من جنس الطعام القليل الذي كان في حضرة الرسول ويضيفه إليه

ولم يشاهِد الحاضرون إلّا أنّ الطعامَ القليلَ قد كثُر وشبع الكثير منه . فحيث كانَ جميع ذلك من الجائزات العقليّة وقدرة الله تعالى صالحة لإبرازه ، وقد نقِل لنا وقوعه معجزة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد آمنّا وصَدَقنا به معشر المسلمين .

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام شفاء الأمراض العضالة على يديه بمجرّد لمسه لأصحابها أو دعائه لهم ، وردّ عَين أحدِ أصحابه بعد ما قلعت فعادت أحسنَ ما كانت ، وإحياء الميت بمجرّد دعائه ، وهذه الخوارق قد نقلت لنا بالأحاديثِ الشريفةِ فآمَنّا بها وصدّقنا ، لأنها جائزة وداخلة تحت تصرّف قدرةِ الله تعالى وهو الذى يوجِدها على يدِ رسولهِ معجزة له ، وتوضيح ذلك : أنّ شفاء الأمراضِ — وإن كانت عادة الله تعالى فيه هو أن يكون بأسبابٍ وفى زمنٍ ممتد ، لكن ذلك أمر عادِيّ والله قادِر على إبرازِه بدون ذلك خرقا للعادة — كما مرّ بيانه وإرجاعُ العَينِ المقلوعة وإن لم تجر العادة فيه فإنه من الجائزاتِ العقليّة ، ولا يحكم العقل باستحالته ، وإنّا نرى كثيراً من الأطباء يصلون بعضَ أجزاءِ الجسْم الحيوانى بعد انفصالِه ويلتحم بواسطةِ العمليّات الجراحيّة ، وردّ العين وإن لم يكن داخِلا تحت كسبهم وقدرتهم ولكنه داخل تحت تصرّف قدرةِ الله تعالى الكاملةِ التى لا تقاس قدرتهم بها ، وإحياء الميت فهو من الجائزات العقلية وإن لم تجر العادة به ، وأنّ القادر على جعلِ الجماد حيوانا وإعطائه الحسّ والحركة والإدراك هو قادِر على إحياء الجسمِ الحيوانِي بعد أن تفارقه الحياة ، فمن يتصوّر عظمة قدرة الله

تعالى وعجائب أعماله : لا يمتنع من تصديق وقوع هذه الخارقة ما دامت تنسب لفعله تعالى .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم : نطق الطفل الرضيع والحيوان الأعجم والشجر والحجر وشهادتها له بالرسالة ، وقد نقل لنا في هذا الأحاديث الشريفة ، وورد في القرآن المجيد نظيره وهو كلام الهدهد والنملة لسيدنا سليمان عليه السلام ، وهذه الخوارق هي من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، وبيان ذلك أن كل شيء في هذا الكون : من أجسام ، وأعراض : كالأصوات وغيرها هو بخلق الله تعالى . فكلام الإنسان الكبير هو لاشك بخلق الله تعالى ، ونفس طبيعته الحيوانية لا تستلزم صفة الكلام ، إذ لا فرق بينها وبين طبيعة الحيوانات العجم في الحيوانية ، بل لا فرق بينها وبين الجمادات في أصل الجسمية . كما أن صورته لا تستلزم صفة الكلام أيضاً ، إذ قد يوجد من أنواع القرود ما يشابه الإنسان في الصورة تمام المشابهة إلا في اكتساء جلده بالشعر وهذا لا يكون فرقاً موجباً لتخصيص الكلام بالإنسان الكبير ومع ذلك فلا يتكلم ذلك القرد ، ولا دليل على وجوب انحصار صفة الكلام بالإنسان بل قد وجد بعض الحيوانات البعيدة المشابهة عنه قابلة لتعلم الكلام ، وذلك : كالطير المسمى بالببغاء . وفيما قررناه قد ظهر أن نوال الإنسان لصفة الكلام ما هو إلا بتشريف الله تعالى له بها وإن قيل : يمكن أن يكون في الإنسان الكبير شيء خفي علينا ولم يوجد في غيره هو الموجب له صفة

الكلام . ولعله الذى يُسمّى بالقوة الناطقة ويُعد فصلًا للإنسان ، أو تكوين خاص فى مخه كما يقول المتأخرون ؛ قلنا : حصر الموجب للكلام فى هذين غير مُسلّم ، على أن الثابت عندنا أن مثل هذا الموجِب سبب عادِىّ والله قادر على خلق الكلام بغير واسطة ، فالقادر على خلق صفة الكلام فيه قادر على خلقها فى غيره : من الطفل الرضيع ، والحيوانِ الأعجم ، والجماد وإن كان هذا خلاف العادة ، فالله تعالى يخرق به العادة معجزة لرسوله فيخلق تلك الألفاظ التى وجدت من ذلك الشىء الذى لم نعهده يتكلم ويصدرها عنه ويسمعها الحاضرون فنحن معشر المسلمين قد آمنّا بهذه المعجزات لأنها من الجائزات الداخلة تحت قدرة رب الأرض والسموات .

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام التى وردت الإشارة إليها فى القرآن المجيد وبيّنها الحديث الشريف : رميه صلى الله تعالى عليه وسلم وجوه الكفار يوم الحرب بكف من تراب فأصاب عين كل واحد منهم شىء من ذلك التراب وانهزموا ، وهذه الخارقة من الجائزات العقلية ، إذ لا مانع من وصول شىء من ذلك التراب لعين كل واحد ، ولكن ليس فى قدرة أحد من الناس أن يوصله هذا الإيصال ويوزعه على أعينهم هذا التوزيع ولكنه فى قدرة الله تعالى ، فهو قادر على فعل ذلك معجزة لرسوله عليه السلام ، وقد امتن عليه بهذه الخارقة التى صرف بها عنه وعن أصحابه الأعداء . فقال فى القرآن الشريف مخاطباً له عليه السلام بقوله : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) يعنى وما رميت حقيقة

وأوصلتَ التراب إلى كلّ عينٍ من أعيُن الكفارِ حين رميتَ ظاهِراً ، لأنّ ذلك ليس في قدرتِك ولكن الله هو الذي رمى حقيقة وأوصل حبات الترابِ لأعيُن أعدائِك المحاربين . فنحن معشر المؤمنين نؤمِن بحصولِ هذه الخارقةِ معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن معجزاتِ سيدِنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إخباره بالمغيّبات سواء كانت حاضِرَةً في الزمانِ غائبة عن العيانِ أو كانت مستقبلة ستأتي ولو بعد مِئاتٍ من السِنين ، وهذه المعجزة بلغت الأحاديث في كثرةِ حدوثِها حدّ التواتر المعنوي ، وأفرادُ حوادِثها بحرٌ لا ساحِلَ له . أما إخباره عليه السلام بالمغيّبات التي كانت حاصلة في زمانه وغائبة عن عيانه فذلك : كإخباره بوفاة النجاشي ، وبالظعنة الحاملةِ الكتابِ إلى قريشٍ ، وفي كتبِ الأحاديثِ من ذلك شيء كثير جداً تضيق عنه الصحف ، فمن أراد الاطلاع على ذلك فليرجع إليها فيرى العجبَ العجاب ! . وأما إخباره بالمغيبات المستقبلة فهو شيء كثير الحوادث ، منه ما وقع في حياته ، ومنه ما وقع بعد وفاته بعد أزمنة قليلة أو متطاولة ، ومنه ما سوف يقع ولنذكر شيئاً من هذا النوع مما وردِ في القرآن المجيد ، أو الأحاديثِ الشريفةِ على وجه الاختصار يظهر به الحق بلا إنكار . فنقول : —

من ذلك ما وردِ في القرآنِ الشريفِ أنّ أصحابَه يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وكانت مكة حينئذ في أيدي المشركين وهم محاربون له ولأصحابه فدخلها هو وأصحابه عليه الصلاة والسلام . وحقق الله

تعالى لهم ذلك ، ومن ذلك قوله فى القرآن (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين) فكان الأمر كذلك ، فبعد أن غلبت فارس الروم غلبتهم الروم فى بضع سنين أى ما بين الثلاث سنين إلى العشر كما أخبر القرآن ، يعلم ذلك من السير النبوية والتاريخ ، وفى القرآن جملة إخبار غيبية يعلم بيانها من كتب التفاسير .

ومن ذلك ما ورد فى الأحاديث الشريفة كما رواه الشيخان ؛ وأصحاب السنن ، والحفاظ الأئمة : كأحمد ، والشافعى ، وأبى حنيفة ومالك : من أنه عليه السلام أخبر أصحابه بالظهور على أعدائهم ، وبفتح مكة ، والقدس الشريف ، والشام ، واليمن ، والعراق ، وظهور الأمن فى الممالك الإسلامية حتى تصير المرأة تسافر من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله تعالى ، فكان ذلك ـ ولله الحمد ـ فى حياته وبعد وفاته عليه السلام ، وأخبرهم بما يفتح الله تعالى على أمته وما يأتون من زهرة الدنيا وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر فكان ذلك ، وفتحت أمته بلاد كسرى وقيصر وقسمت خزائنها بينهم وأخبرهم أنه يغدو أحدهم فى حلة ويروح فى أخرى ، وتوضع بين يديه صحفة وترفع أخرى : يعني تفيض عليهم الدنيا ويأخذون بالتنعم بعد قشف العيش الذى كانوا فيه ، وكان الأمر كذلك . وهذا وضع صحفة ورفع أخرى : تحقق فى كيفية تناول الطعام الذى يسمى فى اللغة التركية (قالدر) وأخبرهم أنهم يقاتلون الخزر والروم ، وبذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده

وكان الأمر على ما أخبر ، وأخبر أنه زويت له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها وكذلك كان ، فامتد ملك أمته فى المشارق والمغارب ما بين أرض الهند فى المشرق إلى بحر طنجة فى المغرب ولم يمتد فى الجنوب والشمال مثل ذلك الامتداد ، وأخبر بالموتان الذى كان بعد فتح بيت المقدس فكان بعد ذلك الفتح طاعون عمواس ، وأخبر بما ينال أهل بيته رضى الله تعالى عنهم من التقتيل والتشريد وبقتل سيدنا الحسين رضى الله تعالى عنه فى (الطف) فكان ذلك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وأخبر عن الحسن رضى الله تعالى عنه بأنه يصلح الله به بين فئتين فكان الصلح بسببه بين الفئة التى معه والفئة التى مع معاوية ، وقال لسراقة أحد أصحابه : كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟ فلما أتى بهما لعمر عند فتح بلاد فارس ألبسهما لسراقة وقال . الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة ، كما نقله السيوطى فى (الجامع الصغير) ونقله فى (جمع الجوامع) عن البخارى فى (التاريخ) والحاكم فى (المستدرك) ونقل بعضهم عن الإمام أحمد فى مسند حسن (١) وصححه عن بشر الغنوى « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » ، وقد حقق الله تعالى فتح القسطنطينية على يد ساكن الجنان السلطان (محمد الغازى) المشتهر بأبى الفتح ، فى عام ثمانمائة وسبع وخمسين من هجرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصبحت عاصمة دار الإسلام .

---

(١) كذا بالأصول التى بأيدينا وهو كما ترى .

ومقرّ خليفةِ سيّد الأنبياءِ العظام ، وموئل الخاصِ والعامِ ؛
وما أحسن تلك الشهادة من حضرة فخر الكائنات عليه أفضل
الصلواتِ والتحيّات فى حقّ فاتح القسطنطينية ، حضرة مولانا
السلطان (محمدٍ الغازى) بلّ اللهُ ثراه برضوانه ، وأسكنه فراديس
جناته . وفى حقّ جيشه المؤيّد المنصورِ ! وما أكرمها من منحة
تنشرح بها الصدور ! ما كيف : وهى من أعظم المناقب الحسان ،
لسادتنا سلاطين آلِ عثمان ، مع مالهم من المفاخر التى لا تعد ،
والمآثر التى لا يحيط بها حدّ . بما فتح الله تعالى على أيديهم من
الممالك العظيمة ، والأقاليم الجسيمة . وجمعهم كلمةَ أهل الإسلام
بعد التفرّق ، وانقسامِ ممالكِ الإسلامِ إلى أقسامٍ عديدةٍ ،
وحكوماتٍ متباينة كل ذلك مع محافظتهم على الشريعةِ المحمدية
المطهّرة . وتأييد الملة الحنيفية المنوّرة ؛ ونصرتهم مذهبَ أهل السنة
والجماعةِ . وحمايتهم الممالكَ الإسلامية وثغورها ، وتعظيمهم لجملة
الشريعةِ المحمدية من علماءِ الدين . وتعظيمهم ومودتهم لآل بيت
سيّد المرسلين وأشرفِ النبيين ؛ إكراماً لجدهم الأعظم ، واستمداداً
لروحانيته صلى الله تعالى عليه وسلم . وخدمتهم للحرمين المحترمين
والمسجدِ الأقصى ، وتشييدهم من الجوامع والمساجد وبيوت
الأذكار . وجليل الآثار ما لا يحصى . وتعهدهم بالعطايا صنوفَ
المحتاجين ، وتطييب قلوب أفراد التبعة العثمانيين ، وبذل ثابت
الهمم فى تأييد هذا الدين ، وإقامةِ شعائر الموحدين ، ونشرِ العلوم
والمعارف فى سائر الأقطار ، وكافة النواحى والأمصار ، إلى غيرِ

ذلك من المناقب الجليلة ، والمآثر الجزيلة التي ملأت الكتب والدفاتر وقصرت عن إحصائها الأقلام والمحابر ، فالله المسئول : أن يؤيد شوكة مجدد مفاخرهم ، ومؤيد مآثرهم ، حضرة سلطاننا الأعظم ، وخليفة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، على ممر الدهور والأزمان ، ملحوظاً بعين عناية سيد الأكوان صلى الله تعالى عليه وسلم ، آمين ، آمين .

وليعلم أن هذه الأحاديث الواردة في أخباره عليه الصلاة والسلام بالأمور المستقبلة قد دون كثير منها في تآليف العلماء الأئمة الأعلام قبل أن تحدث وقائعها في الكون ، ثم بعد ذلك صارت تحدث واحدة بعد واحدة ، وتلك التآليف معلومة مشهورة معلوم تاريخ جمعها وكتابتها ، هذا : حديث فتح القسطنطينية رواه الإمام أحمد الذي كان قبل فتحها بمئات ، وكذلك نقله السيوطي في (جمع الجوامع) عن البخاري في (التاريخ) والحاكم في (المستدرك) وكل من البخاري والحاكم كان قبل فتحها بمئات ، ومعاذ الله أن ينقل تلك الأخبار في كتبهم أتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنصار شريعته ، وتكون غير ثابتة الرواية عندهم ، فلولا اعتمادهم روايتها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما حرروها في كتبهم باقية على مدى الدهور وهم يعلمون وغور أعداء الدين المبين . ومن المعلوم أن سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم كان من العقل في أعلى الطبقات كما يشهد له بذلك أعداؤه ، وكيف يقدم عاقل أدعى منصب الرسالة من عند الله ، واتبعه عليه

الألوف على الإخبارِ بتلك الأمورِ المهمة : كفتح القدس ، والشامِ والقسطنطينية وأمثالِها . وهو يعتقدُ أن ذلك لا يكون ، ويعرض نفسه للتكذيبِ والطعنِ في مستقبل الزمان ؟ معاذَ الله أن يقدم عاقل على ذلك فليتأمل المنصف .

ثم ليُعلَم بعد ذلك كله أنّ الإخبار بالغيب ليس في طوق البشر من رُسُل أو سِواهم ، ومن ادّعى علمَ الغيبِ من نفسِه فقد قال العلماء : إنه يكفر . وإنما الذي يحصل للبشر مِنْ ذلك إنما هو بإعلام الله تعالى لهم ، وهو سبحانه عليم بما كانَ وبما يكونِ ، فلا إشكالَ في ذلك ، فنحن معشر المسلمين نؤمن بوقوع الأخبارِ المغيبات من الرُسُل بإعلام الله تعالى لهم عليهم الصلاة والسلام

وإذا أردنا أن نستوفي معجزات سيدِنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التي أيده الله تعالى بها احتجنا إلى كتابةِ مجلدات ، ولكن قد ذكرنا منها ما يكون فيه للعقول مقنع ، وفي الحقيقةِ ونفسِ الأمرِ إذا نظر العاقل اللبيب في نفسِ شريعتِه عليه السلام ، وما اشتملت عليه من الحِكم والأسرار ، والمنافِع الدنيوية ، والأخروية ، ونظر في ذاته الشريفةِ ، وما خصّه الله تعالى به من الشمائل والأخلاقِ المنيفة . مع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد رُبي يتيما . ونشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، بين قومٍ أميين ما عندهم من المعارف والفنون عين ولا أثر إلا ما فطرهم الله تعالى عليه : من الفصاحة والبلاغة ، ولم يجتمع مع أهلِ المعارف اجتماعا يؤهله لاكتسابِ شيء مما جاء به وبلغه للخلق ، وما جاء به بحر عجاج

يستغرق الإحاطة بعشرة العمر المديد ، جزم ذلك العاقل اللبيب أن حاله عليه السلام ، وحال شريعته هو أمر خارق للعادة ، يحكم العقل بأنه معجزة أكرمه الله تعالى بها مؤيدة لدعواه ، ولكن هذه المعجزة لا يدركها ولا يفهم كنهها إلا أهل الدقة فى النظر ، وأذكياء الخلق من البشر ، لأن من سواهم لا يفهم إلا المعجزات المحسوسة بحاسة السمع والبصر : مثل كلام الحجر ، والشجر ، وانشقاق القمر ، والله تعالى قد أيد نبيه عليه السلام بكلا النوعين من المعجزات كما يظهر مما قدمناه فى بيان معجزة القرآن الشريف وسواها من المعجزات المنقولة فى الحديث المنيف .

ولنذكر الآن طرفاً من بيان حال شريعته عليه الصلاة والسلام وحالته الشريفة العظيمة الشأن ، عسى أن ينتفع بذلك بعض أهل هذا الزمان ، فنقول : —

إذا نظر العاقل المنصف فى شريعة حضرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نظر من يريد الاطلاع على الحقائق ، وأحاط بأسرارها على قدر الطاقة سالكا أوضح الطرائق ، ظهر له ظهور الشمس فى رابعة النهار : أن الشريعة المحمدية تأمر بكل خير ، وتنهى عن كل شر وضير ، هى أنفع ما يكون للأنام ، على مدى الليالى والأيام ، فيراها تأمر الخلق بالاعتقاد بالعقائد الصحيحة فى حق الله تعالى بوصفه سبحانه بكل كمال يليق بشأن الألوهية ، وتنزيهه عن كل نقص تتعالى عنه صفة الربوبية ، وكذلك فى حق الرسل الكرام الذين جعلهم الله تعالى هداة الأنام : من نحو

اعتقادِ عصمتهم من المَعاصِي ، وتنزيههم عن كلّ نقصٍ يُخِلّ بمنصب الرسالة ، وتأمر بعباداتٍ هي فى الحقيقة عائدة بالنفع على العباد ، فتأمر بالطهارة ، وهي مع ما اشتملت عليه من منافِع النظافةِ والنشاط للأبدان ، تذكار للإنسانِ بالتوبةِ التى هي طهارة المرءِ من الذنوبِ والآثام ، وتأمر بعبادة الصلاة ، وهي من أعظم المهذبات للنفسِ ، بما اشتملت عليه من الخضوع والخشوع ، والركوع والسجودِ تعظيماً للهِ تعالى ، وفيها التوسّل إليه سبحانه وتعالى والضَراعة لديه ، وسؤاله الرحمة والمغفرة والإعانة والاستعاذة من العِقاب ، فلذلك كانت وصلة بين العبدِ وربّه ، وتذكاراً له بمن هو الرقيبِ عليه ؛ فلو أنّ الإنسانَ استغرق فى الغفلةِ عن مولاه بانهماكِه فى أشغالِ دنياه لطغت نفسه وأنساه الشيطان ذِكرَ خالِقه وهوّن عليه سلوك سبيلِ المعاصى والشهواتِ ولكنه بوقوفِه فى اليوم والليلةِ خمسَ مرّات بين يدَى مولاه ، مستحضراً عظمته وجلاله يلتجىء إلى التوبةِ عما جناه ، وتفترُ همّته عما من المعاصى نواه ، وفى ذلك يظهر مِصداق قولِه تعالى (إنّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر) وفى اجتماعاتِ الصلواتِ : من صلاةِ الجماعةِ والجمعةِ والعيدَين ، تسهيل سبيل التعارُف والتآلف بين المسلمين والتعاضُد على نصرةِ الدِين ، وألفة الإطاعة لأميرِ المؤمنين ، وحِكم كثيرة يقصر عنها قلم الكاتبين .

وتأمر بالصوم وفيه تهذيب النفسِ بمنعِها عن شهواتها ، وتمرين الإنسان على ردْع نفسه عن المعاصى والشهواتِ المضرة ، وتذكار المرء

بأحوالِ الفقراءِ والمساكين وَمَا يجدونه من أَلَمِ الجوع ، ولولا الصيامُ لكانَ ربما يمرّ على الغنيّ عمره ولا يعلمُ ما هو ألمُ الجوع فلا يجدُ للشفقة على الفقراءِ فى قلبه أثراً ، وتأمرُ بالزكاة وفيها الإحسانُ للفقراءِ والضعفاءِ بسدّ حاجتهم ، وتهذيبُ نفس الغنيّ ، وتطهيرها عن خُلق البخل المذموم ، وتأمرُ بعبادة الحج وهو زيارة أمكنة مخصوصة ، وعدَ الله الأمة على لسان رسوله عليه السلام بغفرانِ الذنوب وقبولِ التوبة عندها ، وفى ذلك اجتماعُ المسلمين ألوفاً مؤلفة فى تلك الأماكن وذلك يدعو إلى التعارف والتآلف ، وفيه تذكار ما جرى لرسل الله الكرام وعبادهِ الصالحين فى تلك البقاع المشرفة : كتذكار ما جرى لسيدنا آدم عليه السلام ولزوجته هناك من قبولِ الإنابة للمولى ، وما جرى لسيدنا إبراهيم الخليل ولولده إسماعيل عليهما السلام من الامتحان وإطاعتهما للرحمن ، وبتذكارِ أعمالِ أولئك الأخيار ، ومحا كاتها فى تلك الديار تنبعث الأنفس لتذكار بقية أعمالهم وعباداتهم وإطاعتهم لمولاهم وتشتاق للاقتداء بهم والتخلق فى كل مرضىّ لخلاقهم ، وفيه زيارة البيت المعظم الذى سماه الله تعالى بيته ، وهو سبحانه غنيّ عن المكان ، وإنما ذلك منه تعالى تنزل لأفكار البشر الذين اعتادوا على الالتجاء لبيوتِ ملوكهم عندما تدهمهم المصائب : فالحجاج يلتجئون إلى ذلك البيت مستجيرين من مصائب الذنوب وغوائل المعاصي ، طالبين منه تعالى الإجارة من بلايا الآثام ، راجين منه الغفرانَ كما وعدهم على لسانِ سيدِ الأكوان ، وبذلك

تطمئن نفوسهم بنوال المغفرة عند امتثال ما أمروا به من الأعمال
عند تلك الأمكنة الطاهرة ، إلى غير ذلك من الحكم والأسرار التى
يضيق عنها هذا الكتاب المختصر ، فليرجع بذلك إلى كتب
الشريعة الغراء المتكفلة بمزيد البيان ؛ وتأمر تلك الشريعة بكل عمل
حسن ، وتنهى عن كل فعل قبيح مضر بالجسد أو العقل أو
العرض أو المال ؛ وتأمر بالأخلاق المحمودة : كالحلم ، والصبر ،
والرضا ، والرحمة ، والشفقة ؛ وتنهى عن كل خلق ذميم : كالكبر ،
والحسد ، والبغضاء ، والحقد ، حتى إنها ما تركت أمراً حسناً
إلا أمرت به وحضت عليه ، ولا أمراً قبيحاً إلا حذرت منه
ونهت عنه ، وقد جعلت لبعض المنهيات الظاهرة الضرر عقوبات
وحدوداً لأجل الزجر عنها : كمثل قتل النفس ظلماً الذى قبحه
لا يحتاج إلى بيان ، ومثل الزنا الذى يقتضي اختلاط الأنساب
وفقد التناصر ، وكشرب الخمر الذى يزيل العقل ، ويؤهل الإنسان
لارتكاب كل قبيح ؛ وكل ذلك ينطوى تحته حكم بديعة ،
وأسرار رفيعة ، تعلم من الاطلاع على كتب هذه الشريعة ؛
وكذلك لم تدع باباً من أبواب المعاملات والسياسات البشرية
إلا وضعت له قواعد وشرعت له أصولاً ، ينتظم بها أمر المعاش
بين البشر ، ويستوفى بها كل من القوى والضعيف حقه : فبينت
أصول البيوع ، والشركات ، والأنكحة ، والمواريث والمعاهدات ،
وكيفية الإطاعة لولاة الأمور ، وكل ما يقوم به صلاح الأمة
من كلى وجزئى ؛ يعلم ذلك من الاطلاع على كتب الفقه أصولا

وفروعا ، فاتيانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهـــذه الشريعة التى تعجز عن الإتيان بها أكبرُ العلماء ، وأحذقِ الأذكياء ، وأكبرَ السياسيين الممارسين سياسة الأمم ، مع أنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يتفق له تعلّمٌ من أحدِ البَشر فى مدة حياته ، هو معجزة خارقة للعادةِ ، ودليلٌ على أنّ تلك الشريعة من عنـد الله تعالى ، أرسله بها سبحانه لإرشادِ الخلق إلى الحق .

أما كونه عليه السلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب فهو أمرٌ مشهور متواتر بالتواتر الصّحيح ، الذى جاءت به المئات والألوفَ من العدول الثقاة ، وقد صرّح به فى القرآن الشريفِ فى عِدّة آيات ، والقرآنُ يتلى على رؤوس الأشهادِ من زمنه عليه السلام إلى يومنا هذا ، ولم ينكر كونه أمياً أحد من قومه ولا أحدٌ وُجد بعد زمانِه ، قال الله تعالى فى القرآنِ الكريم (وما كُنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

وأما أنه عليه السلام لم يتفق له التعلّم من أحَدٍ من الناس . فلأنه نشأ بين قومه فى مكة مشهوراً معروفاً بينهم ، لأنه من ذوى البيوت وأصحاب الحَسب ، ومثلُه لا يُجهل فى بلدتِه ، وقومه أميون لم يوجد بينهم من يَعرف القراءة والكتابة إلاّ القليل ، وأما من يكون محيطاً بعدة معارف ، ومطلعاً على سِياسات البشر ، وقوانين الأمم بحيث يؤهله ذلك لترتيبِ مثل هذه الشريعةِ التى جاء بها الرسول عليه السلام فلم يكن موجوداً بينهم لامنهم ولامن سِواهم ،

إذ مثل هذا لا يخفى وجوده فى بلدة مثل مكة ، وكان يغدو مشهوراً بين الخاص والعام ، ولو قصد أن يخفى نفسه لعسر عليه ذلك ، وأيضاً أن تعلم الرسول عليه السلام تلك الشريعة من مثل هذا الإنسان المفروض لا يكون فى مجلس أو مجلسين ، بل يحتاج إلى أعوام . وأن يتردد عليه فى كثير من الليالى والأيام ، فليس من الممكن عادة أن يخفى تعلمه منه على جميع أهل بلده مهما تحرى ذلك واجتهد فيه ، وقد كان بعض المشركين تمسكوا بمثل هذه الشبهة وصاروا يقولون : إن محمداً يتعلم القرآن من فلان ، وذكروا رجلاً أعجمياً كان بينهم فافتضحوا بهذه الدعوى الواضحة البطلان ، حيث نسبوا تعلم القرآن الذى هو فى أعلى طبقات الفصاحة والبلاغة العربيتين إلى رجل أعجمى ، ليس عنده أدنى فصاحة ، ولا أقل بلاغة توجد فى اللسان العربى ، وقد رد الله تعالى عليهم هذه الشبهة فى كتابه المجيد فقال سبحانه : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) .

وان قيل : ربما أن محمداً عليه الصلاة والسلام تعلم تلك الشريعة من أحد الناس خارج مكة فى بعض البلاد الشامية التى روى أنه سافر إليها قبل دعوى الرسالة مع جملة من التجار ، قلنا : إن الذى ثبت نقله وصحت روايته أنه عليه السلام ما غاب عن مكة فى البلاد الشامية إلى عدة أيام تبلغ الشهرين أو الثلاثة ، هى مدة الذهاب والرجوع ، وقضاء مصالح التجار الذين سافر معهم ، وتلك المعارف التى ظهرت فى شريعته يحتاج تعلمها إلى شهور وأعوام

وليالٍ كثيرة وأيامٍ ، ولو كانَ المعلمَ من أبرعِ المعلمين ، والمتعلمُ من من أزكى المتعلمين . فأى عاقلٍ يصدِّق أنه عليه السلامُ تعلَّم جميع تلك المعارف فى تلك الأيامِ القلائل التى غابَ فيها عن بلده مكة ، وهو رجل أمّى لا يقرأ ولا يكتب ، وتلك المدة لا تكفى لتعلّم بابٍ واحد من أبوابِ تلك الشريعةِ ، ولو كان المتعلم كاتباً قارئاً . على أنّ الرسول عليه السلام ، ما جاء بتلك الشريعةِ وأظهرها للناس دفعة واحدةً من أول دعواه الرسالة ، بل كان يأتى بذلك مفرّقاً موزعاً على الأزمنة من أوّل دعواه إلى أن تمّ دينه ، وانتشر بين الأممِ الذين اتبعوه فى مدة اثنين وعشرين سنة . فكان يبلغ أحكام شريعته وجميعَ مشتملاتِها للناسِ شيئاً بعد شىءٍ على حسَب المقتضياتِ ، والمصالح ، والحوادث ، والمشاكلِ ، والسؤالات ، والشبه الواردةِ من أخصامه . فيأتى فى مقابلة كل شىءٍ بما يطابقه وفق المرغوب ، وهذه الكيفية معلومة لنا بالضرورةِ بما نقل من سيرته ، وكيفيةِ تمام أمرِه نقلاً صحيحاً متواتراً ، وحينئذ يقال : ما الذى أعلم ذلك المعلمَ الذى يدعى الخصمُ انه علم الرسول عليه السلام بجميع الحوادِث المستقبلة التى سوف تقع وتتفق له بينه وبين أخصامه أو أتباعه ؟ سواء قيل إن ذلك المعلم من نفس مكة أو من خارجها ، فعلّمه قبل دعواه الرسالة جميعَ ما يناسب الحوادث التى سوف تحدث معه فى دعواه ، فعرف جواب كل سؤال سوف يرد عليه ، ودفعَ كل شبهةٍ ، وحكم كل حادثةٍ ، وحل كل مشكلة ، وصار عليه السلام يورد لكل شىءٍ ما يناسبه ، ويجيب له فى وقته

مسدداً مقنعاً للأفكار ، وإنا نرى من الحوادث ما لا يخطر فى بال أحد أنه سوف يقع أو يتفق وقوعه إلى آخر الزمان . ومن يطلع على ما حدث من الحوادث فى مدة دعواه الرسالة يعلم أن إحاطة أحد بجميع ما سوف يحدث فى تلك المدة ، واستحضار ما يلزم له هو من المحال عادة ولا يقول به إلا مكابر ، وقد كان عليه السلام فى أكثر أحواله يرد عليه السؤال أو الشبهة ، ويجيب عن ذلك فى مجلسه فى الملأ العام بين جماهير أصحابه وأعدائه المشركين ، ولم يشاهد أحد حينئذ أنه يلتفت إلى واحد من الحاضرين يسأله ، ومتعلماً منه ما يلزم له من الجواب ، أو يضطر إليه من الخطاب ، بل هو المجيب والمدافع والمفيد ، والمعلم ، وكل من لديه تلامذة متعلمون ؛ فأين هذا المعلم للرسول الذى يزعمه الخصم ؟ ما هذا الزعم إلا افتراء بارد ، فقد ظهر الحق لذوى الإنصاف ، وتبين أن إتيان سيدنا محمد الأمى بهذه الشريعة الغراء معجزة من معجزاته ، وأن دعوى تعلمه من أحد من البشر هى دعوى باطلة لا يقول بها إلا كل جاهل بأحوال سيرته ، وتاريخ حياته ، أو معاند مكابر للحق : هدانا الله تعالى إلى ما فيه النجاة ، آمين .

وأما حاله عليه الصلاة والسلام فى ذاته الشريفة وأخلاقه وشمائله المنيفة ؛ فقد نقل لنا العدول ، وصح لنا الأخبار البالغة بكثرتها درجة التواتر : أن سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم قد وهبه الله تعالى المحاسن خَلقاً وخُلقاً ، وجمع الله تعالى فيه الفضائل الدينية والدنيوية . أما حسن صورته وخلقته ؛ فقد ثبت

النقل الصحيح أنه عليه السلام : كان أحسن الناس صورة ، وأجملهم خلقة ، فكان على ما يرام من المحاسن والجمال الباهر ، كما قال فيه بعض واصفيه .

وأحسن منك لم تر قط عيني   وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

وقد أفردت محاسن ذاته الشريفة بالتآليف . فليتشرف بالاطلاع عليها من أراد وأجمع ما وصفه به الواصفون قول بعض من شاهده عليه السلام : هو أجمل الناس من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، وتخصيص الله تعالى له بحسن الصورة هو من جملة الحكم الإلهية ، فإن الله تعالى بعثه داعيا للخلق وحسن الصورة مما تألفه الأنفس ، وتلذ به الأعين ، فتقبل عليه كما أن قبح الصورة منفر مشرد .

وأما وفور عقله عليه السلام وذكاء لبه . فقد صحة الإخبار وتواردت النقول : أنه كان عليه السلام أعقل الناس وأذكاهم ، ومن نظر إلى تدبيره أمور بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة الخاصة والعامة ، وتأليفه أجلاف البوادي ، وأخشان الجبال ، وتهذيبه لهم حتى أصبحوا أكمل الناس أدبا ومعرفة وسيرة : فضلا عما أفاضه من العلم ، وقرره من الشرع ، دون تعلم سابق ، ولا ممارسة تقدمت لم يشك في رجحان عقله ، وثقوب فهمه عليه السلام لأول بديهة ، وهذا لا يحتاج إلى تقرير الدليل ، لتحققه

بالمشاهدة فى عصره، وتواتره بعد ذلك بين طوائف العالم، وقد أعطى عليه السلام جوامع الكلم، وخصص ببدائع الحكم. وأفرد الناس جوامع كلمه، وبدائع حكمه بالتأليف. فمن ذلك قوله عليه السلام: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم) وقوله: (لا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له) وقوله: (ما هلك امرؤ عرف نفسه) وقوله: (المستشار مؤتمن وهو بالخيار حتى يتكلم) وقوله: (رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم) وقوله (إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون) وقوله: (ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً) وقوله: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) وقوله: (خير الأمور أوسطها) وقوله: (أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما) وقوله: (السعيد من وعظ بغيره) إلى غير ذلك من جواهر الكلام وجوامعه، وبديع الحكم التى يقصر عن استيفائها القلم.

وأما حلمه عليه السلام وعفوه وصبره فقد كان فى الدرجة العليا من هذه الأخلاق، فقد صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها، ولما آذاه المشركون أشد الأذى قيل له: لو دعوت عليهم. فقال: (إنى لم أبعث لعاناً، ولكنى بعثت داعياً ورحمة: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون). نعم أخذ يدعو على القبائل التى غدرت بجملة من

قُرَّاء الصَّحابة وقَتلهم ظُلماً ، غيرةً منه عليه السلام على حرمةِ الله التي انتهكت في قَتلِ أولئك المؤمنين المظلومين ، ولما أنزل الله تعالى عليه (ليسَ لكَ من الأمرِ شيءٌ) كفَّ عن الدعاء عليهم ، وفوّض الأمر إليه تعالى وكم همّ أناسٌ بقتله غدراً وقَبض عليهم فعفا عنهم ، وكم جافاه أجلافُ العرب فلاطفهم ، فهو كما نُقل وصفه في الكتب القديمة : أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حِلما ، وكم صبر على مُقاساة قريش وصابر الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله تعالى عليهم ، وحكمه فيهم وهم لا يشكون في إهلاكه لهم عن آخرهم ، فما زادَ على أن عفا وصفح عنهم ، وقال (أقول كما قال أخي يوسف لا تثريبَ عليكم اليومَ ، اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

والآثارُ في ذلك كثيرة وكلها تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضا .

وأما جوده وسخاؤه وسماحته عليه السلام فقد كان بحراً ذاخراً في هذه الأخلاقِ الكريمةِ ؛ فمما رُوِي أنّ رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين جَبَلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإنّ محمداً يُعطي عطاء مَن لا يخشى فاقة ، وأعطى غيرَ واحدٍ مائة من الإبل ؛ ورَدّ على هوازن سباياهم وكانوا ستة آلاف ، وقُوّم ما وهبه لهوازن فكان خمسمائة ألفِ ألفٍ ، والروايات في ذلك أكثر من أن تحصى .

وأما شجاعته ونجدته عليه الصلاة والسلام ، فقد كان منهما بالمكانِ الذي لا يُجهل : قد حضر المواقف الصعبة وفرّ الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابتٌ لا يبرح ، ومقبل لا يدبر

ولا يتزحزح ، قال على رضى الله تعالى عنه : كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وأما حياؤه وإغضاؤه فقد كان عليه الصلاة والسلام : أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات إغضاء ، فكان لا يشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس ، حتى كان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ولكن يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ؛ ينهى عنه ولا يسمى فاعله ؛ ولم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشا ولا متفحشا ، ولا صخابا فى الأسواق . ولا يجزى بالسيئة السيئة .

وأما حسن عشرته وآدابه ، وبسط خلقه مع أصناف الخلق فهو أمر مشهور : فورد أنه كان أوسع الناس صدرا ، وألينهم عريكة . وأكرمهم عشرة ، وكان يؤلف المسلمين ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، يتفقد أصحابه ، ويعطى كل جليس نصيبه . ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه : من جالسه أو قاربه صبر على سؤاله ، وذكر حوائجه حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواء ، كان دائم البشر ، سهل الخلق ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا عياب ، ولا فحاش ، ولا مداح : وكان يجيب من دعاه ، ويقبل الهدية — ولو كانت كراعا ، ويكافى

عليها . قال أنس رضى الله تعالى عنه : (خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال أف قط ، وما قال لشىء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشىء تركته لما تركته) ولا دعاه أحد من أصحابه أو من أهل بيته إلا قال : لبيك ، وكان يمازح أصحابه ولا يقول فى مزاحه إلا حقاً ، ويخالطهم ، ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ويجيب دعوة العبد والحر والأمة والمسكين فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر : وما أخذ أحد بيده فيرسله بيده حتى يرسلها الآخذ ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له ، ويبتدئ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ويكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة ، ويعزم عليه بالجلوس عليها إن أبى ويدعو أصحابه بأحب أسمائهم إليهم ، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله حاجته ، وإذا فرغ عاد إلى صلاته . وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال : (كان خدمة المدينة يأتون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا صلى الغداة : أى الصبح . فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها ، وربما كان ذلك فى الغداة الباردة يريد التبرك به) .

وأما شفقته ورحمته على أمته فذلك أمر مشهور ، وشواهده لا تحصى ، وقد كان يسمع بكاء الصبى فيتجوز فى صلاته رحمة بأمه ، ويكفى بالدلالة على ذلك أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، فجزاه الله تعالى عنا كل خير .

وأما خلقه بالوفاء ، وحسن العهد ، وصلة الرحم فهو شهير

موفور، وقد رُوِيَ أنه وَفَدَ عليه وَفْدُ النجاشي مَلِكِ الحبشة الذي كان قد هاجر إلى بلادِهِ جملةٌ من الصحابة فأكرم مثواهم، فقام صلى الله تعالى عليه وسلم يخدم أولئك الوَفْدَ بنفسه فقال أصحابه: نكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أُحِبُّ أن أكافئهم، وأقبل أبوه من الرَّضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه فجلست عليه ثم أقبل أخوه من الرَّضاعة فقام فأجلسه بين يديه. وقد ورد في صفته صلى الله عليه وسلم أنه: يَصِلُ الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويقري الضيف، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الحق.

وأما تواضعه عليه الصلاة والسلام مع علو منصبه ورفعة رتبته، فكان أعظم الناس تواضعاً، وأعدمهم كبراً. كان يقول: (إنما أنا عبد الله آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد) وكان يركب الحمار ويردف خلفه. ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس مع أصحابه مختلطاً بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس، وكان يُدعى إلى خبز الشعير فيجيب، ويأكل مع الخادم، وحج على رَحْلٍ رَثٍّ وعليه كساء من صوف لا يساوي أربعة دراهم، وقد أهدى في ذلك الحج مائة بدنة. وكان في بيته في مهنة أهله يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله. ويكنس البيت، ويعلف البعير. ويخدم نفسه. ويحمل ما يشتري من السوق مع كثرة عبيده وخدمه. وتشوق الناس لخدمته. لكنه يحب فعل ذلك تواضعاً وتشريعاً.

وأما عدله وعفته وصدق لهجته صلى الله تعالى عليه وسلم : فقد كان أعدلَ الناسِ ، وأعفهم وأصدقهم لهجة مُنذ كان ، اعترف له بذلك أعداؤه ، وكان يتحاكم إليه فى الجاهلية قبل الإسلام ، وورد أنه : ما لمست يده يدَ امرأة قط لا يملك رِقها ، وما خير فى أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعدَ الناس ، وقد جزأ نهاره ثلاثة أجزاء ، جزءاً لعبادة ربه ، وجزءاً لمصالح أهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس ، وكان يقول : أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع أمنه الله يوم الفزع الأكبر ، وقد كان معروفا بالصدق بين قومه من أول نشأته حتى دعوه بمحمد الأمين ، وقال بعض المشركين بعد بعثته : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله تعالى فى القرآن المجيد قوله تعالى : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

وأما وقاره وصمته وحسن هديه صلى الله تعالى عليه وسلم : فقد كان أوقر الناس فى مجلسه ، لا يكاد يخرج شىء من أطرافه ، وكان كثير السكوت لا يتكلم من غير حاجة ، وكان ضحكه تبسما ، وكلامه فصلا : لا فضول فيه ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير ، وكان أحسن الهدي هديه ، وكان سكوته على أربع ، على الحلم والحذر والتقدير والتفكير .

وأما زهده فى الدنيا فحسبنا منه تقلله منها ، وإعراضه عن

زَهرتها ، وقد سِيقت إليه بجملتها ، وترادفت عليه فتوحاتها بما يسّر الله له : من الغنائم ، والأموال ، والأرزاق الواسعة الطيبة بحيث لو أراد لتوسّع فيها واقتطف زهرتها فلم يرضها ، واكتفى بأقل قليل منها ، وحسبنا ما ورد أنه ما شبع من خبز شعير يومين متواليين ، وما ترك ديناراً ولا شاةً ولا بعيراً ، ولم يترك إلا سلاحه وبغلته وأرضًا جعلها صدقة ، وقد كان فراشه جلداً مدبوغا وحشوه ليف وكان ينام أحيانًا على سرير من خوص النخل حتى يؤثر بجنبه الشريف عليه الصلاة والسلام ؛ وكان ينام جائعا يتلوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه ذلك عن صيام يومه ، ولو شاء لجمع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، قالت إحدى نسائه : كنت أبكى رحمة له بما أراه ، وأمسح بيدى على بطنه بما به من الجوع ، وأقول: نفسى لك الفداء ، لو تبلغ من الدنيا ما يقوتك ، فيقول: مالى وللدنيا، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم فأستحى من الله إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم ، وما من شىء هو أحب إلىّ من اللحوق بإخوانى وأخلائى . وإذا أردنا استيفاء جميع أخلاقه الحميدة ، وعموم صفاته المجيدة احتجنا إلى تطويل لا يحتمله هذا الكتاب المراعى فيه الاختصار ، وبما ذكرناه يظهر للعاقل المنصف المتدبر أن اختصاصه عليه السلام بتلك المحاسن ، وتحليته بهذه المكارم مع أنه تربى يتيمًا بين أمة جاهلية تغلب عليهم القسوة والجور ، وخشونة الطباع ، وعدم التهذيب ،

ما كان ذلك إلا بمحض عناية من الله تعالى به ، وإقامته بمنصب رفيع ومقام جليل ، ومن تكون فيه تلك الصفات الكاملة ، والأخلاق الفاضلة ، والعقل الثاقب ، والرأى الصائب ، ما كان ليتلبس بصفة الكذب والاحتيال . ويخدع الناس بزخارف المحال ، ويدعى افتراء على الله تعالى أنه رسوله قد اختاره واصطفاه على من سواه إنا نرى العاقل منا يمنعه عقله ، ويأبى على ضميره ، أن يكذب كذبة واحدة على رجل مثله أو دونه ، وتأنف نفسه الشريفة أن يقدم على ذلك ولو اضطره الحال ، فكيف أن من عقله فى أعلى درجات الكمال ، وهو متصف بأشرف الخصال ، يقدم بالكذب على الإله الكبير المتعال ، ويمارس ذلك على مر الأيام والليالى ؟ معاذ الله أن يقدم على ذلك من له أدنى عقل وأقل كمال .

ثم الغريب من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكل أحواله غريبة — وهو دليل على صدقه ، وإعانة الله تعالى له : أنه قلب حال الأمة التى قام بينها وهى أمة جاهلية ، مغموسة فى بحار الجهالات والضلالات ، فى العبادات والعادات . فرفعها من حضيض الرذائل إلى أوج الفضائل ، فبدل جورها بالإنصاف ، وخشونتها باللين ، وجهلها بالعلم والمعرفة ، وعداوته بالمحبة والألفة . ومحاربتها الجورية بالسلام والأمان ، وشقاءها بالنعيم ، وضلالها بالهدى إلى الصراط المستقيم ، وعصيانها بالطاعة ، وفرقتها بالجماعة . وضعفها بالقوة ، وخيانتها بالأمانة ، وفحشها بالعفة والصيانة ، وقد كان عندها من حميد الشمائل الكرم ، ولكنه مشوب بالتبذير

والإسراف ، والشجاعة ولكنها معلولة بالجور والاعتساف ، فعدّل عليه الصلاة والسلام خصالها ، وهذّب أخلاقها حتى أصبحت خير الأمم ، وأكرم العالم ، وسرى ذلك إلى الأمم الأخرى التى اعتنقت دينه المبين ، فأصبحوا من خيار الصالحين ، وكل ذلك جرى على يديه عليه الصلاة والسلام بواسطة شريعته التى هى منهج السعادة ، وبحسن سيرته وصفاء أخلاقه وكمال سياسته ؛ ولا شك أن ذلك منه كان أمراً خارقا للعادة ، يعد من أعظم المعجزات عند ذوى الانصاف ، وقد اشتبه على بعض الأجانب عن الدين المحمدى لما رأوا أن الجهاد مشروع فيه فظنوا أن هذا الدين ما تم أمره إلا بالسيف والإرهاب ، وهى شبهة باطلة علقت فى فكر من لم يطلع على سيرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأول نشأته وقيام دينه المبين . وأما من عرف ذلك فلا يجد لهذه الشبهة عينا ولا أثرا ، وبيان ذلك أن الذى ثبت نقله نقلا صحيحاً فى سيرته عليه السلام وبدء أمره أنه لما قام فى دعوى الرسالة فى مكة المكرمة كان وحيدا فريدا ، ليس صاحب سلطان ولا معتمدا على عصبة عشيرة ، بل إنه عند قيامه بتلك الدعوة بين جماهير الأمم : كان أول مكذب له عشيرته وعادوه أشد المعاداة ، وسلطوا عليه أشرارهم بالأذى والإضرار ، وهو التزم طريق الهداية والإرشاد . فصار يقيم البراهين على صدق دعواه ، ويورد المواعظ ، ويؤلف القلوب بكل ممكن ، ويأمر بأوامر شريعته المورثة الخير ، وينهى بنواهيها عن كل ما يورث الضير ،

ومضى له على ذلك مدة تبلغ عشر سنوات وهو مقيم فى مكة ، ولم يأمر بإراقة قطرة دم لأعدائه ، بل يتلو قرآنه المشتمل على قوله تعالى : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) وقوله فى خطاب من تبعه : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وقوله : (فمن كفر فعليه كفره) إلى غير ذلك من الآيات ، وهاجر من مكة إلى المدينة وهو ملتزم لهذه الطريقة مدة من إقامته فى المدينة ، وقد اتبعه مع تلك الحال والطريقة الجم الغفير من أهل مكة وأهل المدينة ، وطوائف العرب ، كما يعلم من مراجعة سيرته : وقبلت شرعه العقول السليمة ، واستحسنته الطباع الصحيحة ، ولا خوف هناك ولا ترهيب ، لكن لما ظهر للعقول السليمة ، والأنظار القويمة ، أن المخالفين الذين لم يتبعوه عليه السلام لا يعمل معهم البرهان ، ولا تنفع فيهم الموعظة ، ولا يثمر لديهم الإرشاد ، بل هم فضلاً عن ضلالهم وغيهم لأنفسهم بعدم قبول الدين الحق وسلوك سبيل الاستقامة لا يفترون عن أذاه عليه السلام وأذى أتباعه كلما سنحت لهم الفرصة ، ينصبون لهم المكائد ، ويقيمون فى سبيل دينهم المعاثر ، ويخترعون لهم بدائع الأضرار ، ويعاملونهم معاملة الأشرار ، ووجد أن دوام المعاملة بالرفق لأولئك المخالفين يزيد طغيانهم ، ويشوش أمر الدين على أتباعه ، أذن الله تعالى له عند ذلك بجهاد الأعداء ، والأخصام الألداء ، والأغرار البلداء ، استبدالاً للترغيب مع هؤلاء الأشرار بالترهيب ، ودفعاً للأذى والفساد ، وقطعاً لجرثومة العناد ، إذ قد

INTISARI

يسمح بالأشرار لسلامة الأخيار ، ويقطع العضو المريض لوقاية صاحبه من البوار ، ولكن شرع الله ذلك الجهاد فى شريعة سيدنا محمد عليه السلام على حدود تبقى للرفق مجالا ، وللشفقة والعدل منالا ، حتى لو قوبل جهاده مع الجهاد المشروع فى الشرائع المتقدمة كشريعة سيدنا موسى عليه السلام لوجد أن فى جهاد شريعة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تخفيفات لم توجد فى سواه ، يعلم ذلك من الاطلاع على شئون الشريعتين .

وفيما قررناه ظهر أن تلك الشبهة التى يزعم صاحبها أن الدين المحمدى قام بالسيف هى شبهة ظاهرة البطلان مهدومة الأركان ، والحق الحقيق بالقبول أنه ما كان أساس الهدى والسعادة لنا ولأسلافنا إلا بنور شريعة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبهديه وإرشاده ، فجزاه الله تعالى عنا خير الجزاء ، ورفع درجته فى أعلى عليين ، فعلينا معشر المسلمين مداومة محبته وتعظيم جنابه الشريف وفداؤه بالأرواح ، ومن محبته عليه السلام تعظيم شرعه وإطاعة أوامره ، واجتناب نواهيه كما قيل :

« إن المحب لمن يحب مطيع »

وأما الشخص الذى يدعى محبته وهو مخالف لشرعه فحاله يكون مكذبا لدعواه وشاهدا عليه بخبث الطوية ، ومن محبته عليه الصلاة والسلام محبة أهل بيته وعترته ، وتعظيم حملة شريعته وإكرامهم والإحسان إليهم ، ومن كمال محبته عليه الصلاة والسلام معرفة

نَسَبه الشريف من جهة أبيه ومن جهة أمه ، حتى قال بعض العلماء بوجوب ذلك .

فأما نسَبه من جهة أبيه فهو : سيدنا محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مَناف ، بن قُصَى ، بن حكيم ، بن مُرَّة ، ابن كعب ، بن لُؤَى ، بن غالب ، بن فِهر ، بن مالك ، بن النَضر ، ابن كِنانة ، بن خُزَيمة ، بن مُدرِكة ، بن الياس ، بن مُضَر ، بن نزار ، ابن مَعد ، بن عدنان ، وليس فيما بعده إلى آدم عليه الصلاة والسلام نقل صَحيح .

وأما نسَبه صلى الله عليه وسلم من جهة أمه فهو : سيدنا محمد ابن آمنة ، بنت وَهب ، بن عبد مناف ، بن زُهرَة ، بن حكيم ، فتجتمع معه عليه السلام فى جده : حكيم .

ومن كمال محبته عليه السلام معرفة أسماء أولاده رضى الله تعالى عنهم وهم سبعة على الصحيح : سيدنا القاسم ، وسيدتنا زَينب ، وسيدتنا رُقَيَّة ، وسيدتنا فاطِمَة ، وسيدتنا أم كلثوم ، وسيدنا عبد الله ، وهو الملقب بالطَيِّب والطاهر ، وسيدنا إبراهيم ، وكلهم من سيدتنا خديجة الكبرى رضى الله تعالى عنها إلا سيدنا إبراهيم فمن مارِيَة القِبطِيَّة .

ومن حسن الادب مع حضرته عليه الصلاة والسلام اعتقاد نجاة أبويه ، إما بالاعتماد على قول من يقول بنجاة أهل الفترة الذين كانوا قبل بعثة الرسول عليه السلام وهما من جملتهم ، وإما بالاعتماد على ما ورد فى بعض الآثار أن الله تعالى أحياهما له حتى آمنا به وذلك جائز داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى .

واعلم أنه قد دلت النصوص الشرعية ، وانعقد اجماع الأمة المحمدية على أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم مبعوث من الله تعالى إلى الناس كافة بل إلى الثقلين الإنس والجن ، لا إلى العرب خاصة كما زعمه بعض الكفار ، وانعقد إجماع الأمة أيضاً على أنه خاتم الأنبياء والمرسلين : لا نبي بعده ، فشرعه عليه السلام لا ينسخ إلى آخر الزمان ، أى لا يرفع بشرع سواه ، وسيدنا عيسى عليه السلام عند نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان إنما يحكم بشرع نبينا عليه السلام لا بشرع جديد ، وعدم قبول سيدنا عيسى عليه السلام للجزية هو من جملة شرع نبينا عليه السلام ، لأن قبول الجزية فى الشرع المحمدى غايته إلى نزول عيسى عليه السلام ، وقد انعقد الإجماع أيضاً على أن شرع نبينا ناسخ لسائر الشرائع المتقدمة ، أى ناسخ أكثر أحكامها غير العقائد منها : وأما العقائد كالإيمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فهى ثابتة فى سائر الشرائع ، وحكمة نسخ شريعته لجميع الشرائع هى اختلاف المصالح بحسب الأزمنة مثلاً المصلحة فى زمن الأمم السابقة اقتضت تكليفهم بشرائعهم ، والمصلحة فى زماننا إلى آخر الدهر اقتضت تكليفنا بشريعة نبينا ، وبهذا ظهر سقوط شبهة من يقول من الكفار إنه يلزم على القول بالنسخ ظهور مصلحة كانت خفية على الله تعالى : إذ يقال له : إن الله تعالى من الأزل عالم بمصلحة كل أمة وزمنها ، فرتب قديماً لكل أمة شريعة ، وأرسل رسولا لكل منها ، وجعل المتأخرة ناسخة للمتقدمة فأين الخفاء على الله تعالى ؟ وانعقد الإجماع أيضاً على أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق أجمعين

لا يفضله أحد من مخلوقات الله تعالى ، ثم الراجح عند العلماء أن الأفضل بعد نبينا سيدنا إبراهيم ، ثم سيدنا موسى ، ثم سيدنا عيسى ثم سيدنا نوح ، وهؤلاء الأربعة مع نبينا هم أولو العزم من الرسل ثم بقية الرسل ، ثم الأنبياء غير الرسل ، وهم متفاضلون فيما بينهم عند الله تعالى ، ثم سيدنا جبريل ، ثم سيدنا ميكائيل من الملائكة ثم بقية رؤساء الملائكة ثم عوام البشر ، والمقصود منهم أولياؤهم غير الأنبياء : كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ثم عوام الملائكة ، وقد ثبت في الأحاديث النبوية أن قرنه عليه الصلاة والسلام أي أصحابه هم خير القرون المتقدمة والمتأخرة ما عدا الأنبياء والرسل والصحابي هو من اجتمع بالرسول عليه الصلاة السلام مؤمنا به ومات على ذلك ، وأفضل أصحابه عليه الصلاة والسلام خلفاؤه الأربعة على ترتيب خلافتهم فأولهم في الفضل أبو بكر الصديق ، ثم سيدنا عمر بن الخطاب ، ثم سيدنا عثمان بن عفان ، ثم سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وأفضل القرون بعد قرنه عليه الصلاة والسلام قرن التابعين ، وهم الذين اجتمعوا بالصحابة اجتماعا متعارفا . ثم قرن أتباع التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . ومما انعقد عليه إجماع الأمة أن النبوة خصيصة من الله تعالى لا تكون مكتسبة للعبد ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا ، وكذلك الرسالة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ . وأما الولاية فالأظهر عند العلماء فيها التفصيل فمنها ما هو مكتسب ، وهو امتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، وتسمى الولاية العامة ، ومنها ما هو غير مكتسب ، وهو

العطايا الربانية : كالعلم اللدني ورؤية اللوح المحفوظ ، وغير ذلك .

ولنختم مبحث المعجزات ببيان بقية خوارق العادات فنقول : قد علمت أن الأمر الخارق للعادة إذا ظهر على يد مدعي الرسالة من عند الله تعالى أو النبوة يسمى معجزة ، فأما إذا ظهر للرسول قبل دعواه النبوة أو الرسالة كما ورد أن سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم كانت تظلله الغمامة قبل إرسال الله تعالى له وادعائه الرسالة فيسمى هذا إرهاصاً ، أي تأسيساً للرسالة .

وأما إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد ظاهر الصلاح والعدالة وليس عنده دعوى النبوة والرسالة فيسمى كرامة ، ونحن معشر المسلمين من أهل السنة والجماعة نؤمن بكرامات الأولياء لورود النصوص الشرعية بذلك ، ونقل الأخبار الكثيرة بوقوع خوارق العادات للكثير من الصالحين أكرمهم الله تعالى بها لأجل أن يحترموا بين الناس ، أو ليقبل إرشادهم وموعظتهم إذا أقامهم الله تعالى في مقام الإرشاد ، أو لتفريج كروبهم وقضاء مصالحهم إذا احتاجوا إلى ذلك ، وكل ذلك فضل من الله سبحانه وتعالى عليهم ، ولا يجب عليه تعالى شيء من ذلك ، والأولياء جمع ولي ، وهو العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الإمكان ، المواظب على الطاعة ، المجتنب للمعاصي ، بمعنى أنه إذا ارتكب معصية بادر إلى التوبة ، وليس المراد أنه لا تقع منه معصية إذ ليس هو معصوماً ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة ، وأما أصل التناول للذات المباحة فلا مانع منه لاسيما إذا كان بقصد التقوى على طاعة الله تعالى .

وأما إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد مستور الحال، لا ظاهر الصلاح، ولا ظاهر الفسق فيسمى معونة، أى إعانة من جانب الله تعالى: وأما إذا ظهر على يد ظاهر الفسق فيسمى استدراجا، بمعنى أن الله استدرجه بإظهار ذلك على يده فيتمادى بفسقه، ثم إذا أخذه الله تعالى لم يفلته — والعياذ بالله تعالى.

وهذه الأقسام من خوارق العادة تكون على وفق مقصد من تظهر على يديه، وبقى قسم آخر: وهو أن يقع الأمر الخارق للعادة للمرء على خلاف ما يطلبه، كما روى أن مسيلمة الكذاب الذى ادعى الرسالة فى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بصق فى عين رجل لتشفى فعميت الأخرى، ويسمى هذا القسم من خوارق العادة خذلانا، أى تكذيباً وخزياً من الله تعالى لذلك الكاذب.

ولا اشتباه بين هذه الأقسام وبين المعجزة؛ لأن المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة، أو النبوة — كما تقدم — موافقة لمقصد من تظهر على يديه، وغيرها ليس كذلك، كما أنه لا اشتباه بين الكرامة التى تظهر على يد ظاهر الصلاح غير مدعى الرسالة أو النبوة موافقة لمطلبه، وبين بقية الأقسام، والله تعالى أعلم.

الفصل الرابع

فى بيان الإيمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام، والإيمان بالكتب المنزلة من عند الله تعالى على رسله، والقضاء والقدر.

اعلم أنه يجب على كل مكلف شرعا الإيمان بالملائكة عليهم

الصلاة والسلام ، وهو أن يعتقد اعتقاداً جازما بوجودهم ، وأنهم عباد الله المؤمنون به المكرمون — لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون — وقد وردت النصوص الشرعية بجميع ذلك ، وحقيقتهم عند أكثر المسلمين : أنهم أجسام لطيفة ، أعطاهم الله تعالى القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مسكنهم السموات .

وقد وردت النصوص الشرعية بما يفيد أنهم أقسام ، فمنهم حملة العرش ، ومنهم الحافون حول العرش ، ومنهم أكابر الملائكة كجبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ومنهم ملائكة الجنة ، ومنهم ملائكة النار ، ومنهم الموكلون ببني آدم ؛ ومنهم كتبة الأعمال ومنهم الموكلون بأحوال هذا العالم بالتدبير ، ومنهم رسل الله إلى أنبيائه بالوحي دلت النصوص أيضا على أنهم قادرون على الأعمال الشاقة العظيمة التي يعجز عنها ألوف البشر بل جميع البشر إلى غير ذلك مما ورد في حقهم في القرآن والأحاديث .

وقد اتفق أئمة المسلمين — كما يؤخذ من الشفاء الشريف — على عصمة المرسلين منهم بالوحي إلى أنبياء البشر كما عصم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولكن اختلف العلماء في عصمة غير المرسلين من الملائكة ، فقال الفخر الرازي : والجمهور الأعظم من علماء الدين على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب ، وقد تمسك المخالفون في عصمتهم بأمور : منها أن إبليس كان من الملائكة فعصى الله تعالى وكفر ونحن نقول : إن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة كما حققه الإمام الرازي وغيره من العلماء ، ومنها قصة هاروت

وماروت ، ونحن نقول : أما الآية التي وردت فيهما وهي قوله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) فالذي تلخص من كلام الإمام الرازي في تفسيره أن السحرة كثرت في ذلك الزمان ، واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة ، ويجعلون تلك الأعمال السحرية معجزاتهم فبعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك السحرة الذين يدعون النبوة كذبا ، ولا شك أن هذا من أحسن المقاصد فهذان الملكان كانا لا يعلمان أحداً السحر حتى يبذلا النصيحة فيقولا له : إنما نحن فتنة ، أي محنة يتميز بها المطيع من العاصي ، فهذا الذي نصفه لك من السحر وإن كان القصد منه أن يظهر به الفرق بين السحر وبين المعجزة ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصي ، فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه ، أو تتوصل به إلى شيء من الأغراض العاجلة ، ثم إن القوم تعلموا منهما السحر واستعملوه في الشر ، وإيقاع الفرقة بين المرء وزوجه ، ثم قال الرازي : واتفق المحققون على أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور ، يعني وإنما المحظور العمل به ، وتقرير الآية بهذا الوجه لا إشكال فيه ، ولا يدل على معصية الملكين المذكورين كما هو ظاهر ، بل يكونان قد امتثلا أمر الله تعالى في التعليم ، كما لا إشكال في أنه كيف ينزل

اللهُ تعالى عليهم السِّحرَ المنهيَّ عنه ، لأنَّ المُحرَّم هوَ العمَل به لا تعلّمه لأجل مَقصدٍ حَسَن . وأمّا ما رُوِيَ من أنَّ هذينِ الملكين قد مثّلا بشَرين ورُكِّب فيهما الشهوة فتعرَّضا لامرأة يقال لها الزهرة ، فحملتهما على المعاصي والشِّرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلّمت منهما ، فنقول : إنَّ هذه القِصّة قد اختلفَ العلماء في صِحّة نقلها ، فقال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره : إنَّ هذه الرواية فاسدة مَردودة غير مقبولة ، لأنه ليس في كتاب الله تعالى ما يدل على ذلك ، بل فيها ما يُبطِلها من وجوه ، ثم بيَّن تلك الوجوه . وقال الإمام البيضاوي عن هذه الرواية : إنها مَحكية عن اليهود . وقال أبو السعود في تفسيره : إنها مما لا يُعوَّل عليه ، لأن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل . وقال القاضي عياض في الشفاء الشريف : إنَّ هذه الأخبار ، يعني المذكورة في قِصّة هاروت وماروت لم يُروَ منها شيء ، لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليس هو شيء يؤخذ بقياس .

وإذا عَلِمتَ ذلك فنحن يسوغ لنا الأخذ بقول هؤلاء الأئمة الأعلام ، والاعتمادُ على ما رجّحوه في عَدَم صِحّة هذه الرواية . ولا يجب علينا اعتقادُ هذه القِصّة في هذين الملكين ، وعلى فَرض صِحّة روايتها كما قال به بعضهم فنقول : لعلها من باب ضَربِ الأمثال والرموز كما ذكرَ احتمالَ ذلك البيضاوي ، وأبو السعود ، وبيّنَ شيخي زاده والسَيلكوتي في حاشيتهما على البيضاوي كيفيةَ ذلك التمثيل ، أو لعل الروايةَ في هذه القصةِ هي حكاية لما قاله اليهود وزعموه من جُملة أقاصيصهم ، فبطلانه في

نفسه لا ينافي صحة الرواية التي حكته لنا عنهم ، وعلى هذا حمل السيلكوني قول البيضاوي محكية عن اليهود ، وعلى كلٍّ فلا تعارض هذه القصة عصمة جميع الملائكة والله تعالى أعلم .

ومما وردت به النصوص الشرعية ، ويجب علينا الإيمان به أن على كل عبدٍ حفظة من الملائكة ، وكاتبين يكتبون أعمال العبد : من حسنات ، وسيئات وهذه الكتابة يكفر منكرها لتكذيبه القرآن قال تعالى : (كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) لكنها ليست لحاجة دعت إليها : لإحاطة علم الله تعالى بكل شيء ، وإنما فائدتها أن العبد إذا علم بها استحيا وترك المعاصي .

والكتب حقيقي بآلةٍ وقرطاس ، ومداد ، يعلمها الله تعالى حملاً للنصوص على ظواهرها ، مع عدم الاستحالة في ذلك ، والله أعلم .

ومما وردت به النصوص الشرعية أيضاً : وجود ملك يقبض الأرواح : أي يخرجها من مقرها . فيجب الإيمان بذلك ، وورد أن اسمه (عزرائيل) وأن له أعواناً بعدد من يموت : يترفق بالمؤمن ويأتيه بصورة حسنة ، بخلاف غيره ، وسنذكر في الباب الثالث إن شاء الله تعالى الشبه الواردة في شأن الملائكة فانظرها هناك .

ويجب على كل مكلف شرعاً الإيمان بالكتب المنزلة من الله تعالى على الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فنؤمن بأن الله تعالى كتباً أنزلها على رسله ، وبين فيها أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وأفضل الكتب المنزلة القرآن ، ثم التوراة ، ثم الإنجيل ، ثم الزبور ، وكلها كلام الله تعالى .

واعلم أن كلام الله تعالى يطلق على معنيين : المعنى الأول هو :

الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى التى ليست بحرف ولا صوت كما قدمناه فى بحث صفاته تعالى ، والمعنى الثانى هو : الكلام اللفظى المنزل على الرسل ، ومعنى أنه كلام الله تعالى أنه بمجرد الوحى وليس لأحد فى أصل تركيبه كسب ، وهو يدل على جميع الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات ، كما مر فى بحث الصفات ، وهذه الألفاظ المنزلة على الرسل تدل على بعض ما تدل عليه تلك الصفة القديمة فلو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الصفة القديمة طلب إقامة الصلاة مثلا لفهم ذلك من قوله تعالى فى القرآن : (أقيموا الصلاة) وعلى المعنى الثانى يحمل قول السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها : (ما بين دفتى المصحف كلام الله) ومن أنكر أن ما بين دفتى المصحف كلام الله فقد كفر ، إلا أن يريد أنه ليس الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى ومع كون اللفظ الذى نقرؤه حادثا ومخلوقا لا يجوز أن يقال كلام الله أو القرآن حادث أو مخلوق إلا فى مقام التعليم ، لأنه لإطلاقه بالمعنى الأول على الصفة القديمة ربما يتوهم أن هذه الصفة حادثة أو مخلوقة ، ولذلك ضرب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه وحبس على أن يقول بخلق القرآن فلم يقل .

ثم اعلم أن جميع الكتب المنزلة قد نسخت بالقرآن تلاوتها وبعض أحكامها ، والله تعالى أعلم .

ومما يجب شرعا على كل مكلف : الإيمان بالقضاء والقدر ، وكما وردت النصوص الشرعيه بهما : وكما أمرنا بالإيمان بهما فقد

نُهِينا عن الخوضِ فى مَباحثِهما . ولكن لَمّا كان الإيمانُ بهما لا بد فيه من تفسيرِ معناهما نقول : إنّ المنقول عن الماتريدية فى تفسيرهما : أنّ القَدَر هو تحديدُ الله تعالى أزلاً كلَّ مخلوقٍ بحدِّه الذى يُوجَد عليه : من حُسْنٍ وقُبحٍ ، ونفعٍ وضرٍّ ، إلى غيرِ ذلك ، أى عِلمه تعالى أزلاً صفاتِ المخلوقاتِ ، فيرجع إلى صفة العلم ، وأن القضاءَ إيجادُ الله تعالى الأشياءَ على وفقِ علمه تعالى وتقديرِه لها فى الأزلِ ، فقد تبيّنَ أنّ القَدَرَ والقضاءَ راجعان إلى تعلّق العلمِ الإلهيِّ الأزلى بالأشياءِ وتعلّقِ القدرةِ الإلهيّة بها ، وهذا قد مرّ بيانه عند بيانِ ما يتعلّق من صفاتِ الله تعالى بالأشياءِ وما لا يتعلّق ، ولكن لمّا كان خطرُ الجهلِ فى فنّ التوحيدِ عظيماً صرّح العلماء بوجوبِ الإيمانِ بالقضاءِ والقدَر ، ولا سيما أنه قد صرّح بالإيمانِ بهما فى صحيح الأحاديث .

ثم اعلم أنه — وإن وجبَ الإيمانُ بالقَدَر ، لكن لا يجوز الاحتجاج به لا قبلَ الوقوعِ توصّلا إلى الوقوعِ بأن يقولَ الشخصُ : قدّرَ الله تعالى علىَّ الزنا مثلاً ، وغرضه بذلك التوصّل إلى الوقوع فى الزِنا وللشرع الحجة عليه فى ذلك ، إذ يُقال له من جانب الشرع : وما أدراك أنه قدر عليك من الأزل ذلك حتى تقدم عليه ؟ فإقدامك على الذنب ليس إلا لهوى نفسِك وباختيارِك ، وبذلك تؤاخذ عليه ، ولا بعد الوقوعِ تخلصاً من الحدّ الشرعي ونحوِه ، بأن وقعَ شخصٌ فى الزِنا وقال : قدّرَ الله تعالى علىَّ ذلك ، وغرضه التخلّص من الحدِ ، وللشرع الحجة عليه أيضاً ، إذ يُقال له إنك

أقدمتَ على الذنب ولا عِلمَ لك بتقديره عليكَ أزلًا ، فإقدامك عليه إنما كان إلا لهوَى نفسِك وجُراءتك على اللهِ تعالى ، وبذلك تؤاخذ ويجب عليكَ الحدّ ، والله تعالى أعلم .

الفصل الخامس

فى الإيمانِ باليومِ الآخِر ، ومَا يشتملِ عليه ، وبالبعث ، وما يتقدمِ ذلكِ : من أحوالِ الموْت ، والقبرِ ، وما يتبعُ ذلك ، ورد الشبه التى ترد فى هذا المَقام .

اعلَم أنه مما يجب على كل مُكلّف شرعاً الإيمان باليومِ الآخر وهو يوم القيامة ، وأوّله من وقت الحشر ، وينتهى بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، والواجبُ الإيمان به وبما يشتمل عليه ، كما يجب الإيمان بما يتقدمه من العلامات التى ثبتت بالنصوصِ الشرعية ، وبما يتقدمه أيضاً من قبضِ الروح ، وأحوالِ القبر ، وأمثالِ ذلك مما ثبتَ فى النصوصِ الشرعية الصّحيحة ، وتفصيل جميع ذلكَ فيما سيتلى عليكَ فنقول :

قد وَرَدتْ الآياتَ والأحاديثَ الصحيحةَ ، واتّفقَ أهل السنة والجماعة أنّ لكل إنسانٍ رُوحاً جرت عادة الله تعالى أنها إذا كانت فى جسدهِ كان حياً وإذا فارقته حله الموت ، وأنّ عُمر كل إنسان مُقدر بتخصيصِ اللهِ تعالى لا يزيد ولا ينقص حتى المقتول فإنه ميت بأجله فإذا انقضى أجلَ الإنسان قبضَ رُوحه المَلَكُ الموكّل بقبضِ الأرواح ، وهو ملك من أكابرِ الملائكةِ يسمّى (بعزرائيل)

فهو يقبض الروح ، أى يخرجها من مقرها ، ثم بعد وضع الإنسان في قبره يعيد الله تعالى إليه الروح ، ويرد إليه من الحواس والعقل ما يتوقف عليه فهم الخطاب ويتأتى معه رد الجواب ، ثم يأتيه في تلك الحالة ملكان ويسألانه عن معتقده ، والحكمة في هذا السؤال أن يظهر لدى الملائكة المؤمن والمطيع وغيرهما ، ويترتب على ذلك إما تنعم الميت في قبره ، وإما عذابه ، ويستثنى من هذا السؤال من وردت الأحاديث باستثنائه : كالأنبياء وغيرهم ، كما هو مبسوط في كتب الأحاديث ، ثم إن الميت إما أن يتنعم في قبره إن كان مؤمناً مطيعاً ، وإما أن يعذب ، والمعذب إما أن يدوم عذابه إلى يوم القيامة ، وإما أن ينقطع كما في بعض عصاة المؤمنين ، ومن أحوال القبر ضغطته ، وهي التقاء حافتيه على الميت ، ولا ينجو منها أحد إلا من استثنى في الأحاديث : كالأنبياء .

ثم إذا تصرم الزمان ، وقرب يوم القيامة ظهرت له علامات : منها العلامات الصغرى التى ظهر منها في هذا الزمان الكثير . ومنها العلامات الكبرى وهي عشر : ظهور المهدى ، وخروج الدجال . ونزول سيدنا عيسى عليه السلام ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدابة التى تكلم الناس ، وطلوع الشمس من مغربها . وظهور الدخان : ويمكث في الأرض أربعين يوماً ، يصيب الكافر حتى يصير كالسكران . ويصيب المؤمن منه كهيئة الزكام ، وخراب الكعبة على يد الحبشة بعد موت عيسى عليه السلام . ورفع القرآن من المصاحف والصدور ، ورجوع أهل الأرض كلهم كفاراً .

ثم ينفخ في الصور النفخة الأولى فيموت أهل الأرض والسموات ، والصور هو شيء كالقرن كبير جداً ينفخ فيه سيدنا (إسرافيل) أحد كبراء الملائكة ، ثم بعد مضي زمان طويل — والخلائق موتى — ينفخ في الصور مرة أخرى : فيبعث الله تعالى الموتى من قبورهم ، ويحشرهم إلى الموقف : وهو الموضع الذي يقفون فيه لفصل القضاء وإجراء حسابهم ، ومن أهوال الموقف طول الوقوف فيه ، ودنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون على قدر الميل ، وخوضهم في العرق الذي هو أنتن من الجيفة ، ويكون خوضهم فيه على قدر أعمالهم حتى إن بعضهم يلجمه العرق إلجاماً ، وسؤال الملائكة لهم عن أعمالهم وتفريطهم فيها وشهادة أعضائهم وجلودهم والأرض والحفظة الكرام عليهم ، ولا يصيب شيء من تلك الأهوال الأنبياء والأولياء وسائر الصلحاء .

ثم بعد اشتداد هول الموقف يشفع سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (الشفاعة العظمى) وهي شفاعته في فصل القضاء بين جميع الخلائق عندما يشتد الهول عليهم ، ويطول وقوفهم . فيستشفعون به فيشفع لهم عند ربه في ذلك ، وبعد ذلك له شفاعات كثيرة : منها شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب ، ومنها شفاعته في عدم دخول قوم النار لقوم استحقوا دخولها ، ومنها في إخراج العصاة الموحدين من النار ، ومنها في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها ، ومنها غير ذلك كما جاء في الأحاديث الشريفة ، ويشفع غيره عليه السلام من الأنبياء ، والرسل ، والملائكة ، والصحابة ، والشهداء ، والعلماء العاملين ، والأولياء .

ويأخذ العِبَادُ صُحفَهم ، وهي كُتبهم التي كَتَبت فيها الملائكة ما فعلوه في الدنيا ، وتوزن أفعال العِباد بميزانٍ ، وجمهور المفسّرين على أنَّ الموزون هي الكتب التي اشتملت على أعمالِ العِباد ، بناءً على أنّ الحسنات مُميَّزة بكتابٍ والسيئاتِ بآخر . ويجب علينا الإيمانَ بالوزن والميزانِ ، وتفويض عِلم حقيقةِ ذلك إلى الله تعالى ، وتحاسَبُ الخلائِق : أى يُوقِفُ الله تعالى الخلائق على أعمالهم خيراً كانت أو شرّاً ، قولا كانت أو فِعْلا تفصيلاً بعد أخذِهم كتبها ، ويكون الحِسَابُ للمؤمنين والكافرين ويَستثنى من ذلك من وردت الأحاديث باستثنائه .

ثم يمرّ الخلائِق على الصِّراط ، وهو جسر ممدود على مَتن جهنم يمرّ عليه الأوّلون والآخِرون ، وهو طريق النّاسِ إلى الجنةِ ، فالمؤمنون الطّائعون والذين غُفرت سيئاتهم يمرّون عليه ويخلصون إلى الجنةِ ، والكفار وبعض عُصَاةِ المؤمنين الذين حَكَم عليهم بالعَذَاب فى جهنّم مُدة يسقطون فى نارِ جهنم فى حَال مرورهم على الصِراط ، ومرور النّاجين مختلف فى السرعة والبُطْء حسب مقاماتهم ؛ والحكمة فى المرور على الصِراط ظهورُ النّجاة من النّارِ وأن يتحسرّ الكفار بفوزِ المؤمنين بعد اشتراكِهم فى المرورِ

ومما اشتمل عليه يوم القيامةَ وجود حوضٍ عظيم لسيدِنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يرده المؤمنون ويشربون منه عند العطش الأكبر .

ثم إن الله تعالى خلق دارين عظيمتين : إحداهما دار النعيم وهي

الجنة ، وفيها من النعيم الذى أعده الله لعباده المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وثانيتهما دار العذاب ، وهى جهنم أعد الله تعالى فيها من العذاب للكفار والعصاة ما ترجف عند ذكره القلوب وتقشعر الجلود . أعاذنا الله تعالى منها ، وهاتان الداران مخلوقتان وموجودتان كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث ، وبعد انقضاء حساب الخلائق ومرورهم على الصراط يدخل الجنة المؤمنون الطائعون من جميع الأمم وعصاة المؤمنين الذين غفرت سيئاتهم أو أدركتهم شفاعة . ويدخل جهنم الكفار وعصاة المؤمنين الذين حكم عليهم بالعذاب مدة ، أما الكفار فلا يخرجون منها أبداً ، وأما العصاة المؤمنون فمآلهم الخروج منها ودخول الجنة بعد انقضاء مدة عذابهم أو نوالهم شفاعة . ثم يدوم أهل الجنة خالدين فى الجنة ، وأهل النار الكفار خالدين فى النار أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وكل ما مر فقد ثبت بالآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجب الإيمان به على كل مكلف شرعا ، والله تعالى أعلم .

توضيحات يندفع بها بعض الشبه
الواردة على ما مر فى هذا المقام

اعلم أنه قد ترد بعض الشبه على بعض ما ذكر هنا فى هذا المقام ولكن هى عند من يؤمن بوجود الله تعالى ، وعظيم قدرته وواسع علمه ، ويعتقد أن الله تعالى هو الذى أوجد هذه الأكوان من

العدَم ، وصوّرها على صُوَر تشتمل على دقائق الحِكَم ، لا يصعب عليه الإيمان بجميع ما مرّ ، ولا رد تلك الشبه عن عقيدته بقاطع البرهانِ وواضح التبيان ؛ وأما من لم يكن مؤمنا بوجود ذلك الإله العظيم ، فالصواب فى حقه أولاً أن تقام له الأدلة على وجوده تعالى ، ثم بعد ذلك تكشف شبهته فى أمثال هذه العقائد . وتوضيح ردّ تلك الشبه أن يقال : إنّ الذى ثبت فى النصوصِ الشرعية أنّ للإنسان رُوحًا تتعلّق بجسده ويتسبب عنها حياته وإذا فارقته بقبضِ الملك لها حلّه الموت ؛ فبعض علماء الإسلام خاض فى البحثِ عن حقيقةِ هذه الروح ولكن لم يقم معه برهان قاطع شرعى أو عقلى على بيانِ حقيقتها ، وبعضهم — وهم أهل الطريقِ الأسلم — ترك الخوْض فى هذا البحثِ إذ لم يرد عن الشارع دليل على حقيقتها بل قد ورد فى الشرع ما يشير إلى أنّ ترك البحثِ عن حقيقتها هو الأولى ، وعلى طريقةِ هؤلاء العلماء يكفى فى تصديقِ النصوصِ الشرعية الواردة فى وجودِ الروح أن يعتقد المكلف أن لكل إنسانٍ رُوحا ، وهى شىء موجود الله أعلم بحقيقته ، وليس فى القولِ بوجوده ما يخالف العقل ، وعدم الإحساس به كما يقول بعض الجهلة : بأنا لا نرى شيئاً يخرج من فم الميتِ عند موته لا يقتضى عدمه ، إذ ربما يكون عدم الإحساسِ به للطافته كالهواء ، أو كالأثير الذى يقول به الطبيعيون المتأخرون أو لدقته جداً كالحيوانات الصغيرة جداً التى توجد فى المياه ، وكثير منها لا يرى حتى بالمجسمات للمرئى ، أو لغير ذلك ؛ وكونه بتلك اللطافةِ أو الصغر

وتنشأ عنه الحياة لا غرابة فيه . فكم من عقار أو نبات لطيف أو أو صغير جداً تنشأ عنه حوادث عظيمة لا تجدها العقول ، وكذلك شرارة النار إذا لامست كمية كثيرة من الأجسادِ القابلة للالتهاب ، وكما فى الجزءِ الصغيرِ من السمّ إذا دخل الجسد وما يحدث عنه ، وأمثال ذلك كثير مما هو لطيف أو صغير تنشأ عنه حوادث عظيمة فلا غرابة فى تسبّب الحياةِ فى الجسد عن الروح ، وإن كانت أمراً لطيفاً أو صغيراً جداً لا سيما أن الحياة لا تنشأ عن الروح بطبيعتها بل بخلق الله تعالى ، والروح إنما هي سبب عادي فلا إشكال فى ذلك أصلاً ثم ، وإن تكن الروح بتلك اللطافةِ أو الصغر فلا مانع من أن يجعل الله تعالى للملك قدرةً على قبضها وإخراجها من الجسد ، ألا ترى المغناطيس قد جعل الله تعالى فيه خاصّة جذب الحديد فيجذب ألطف وأدق برادة منه ولو لم ترَ بالعين ولا بمجسّمات المرئى ، وكل ذلك من الجائزاتِ العقلية الداخلة تحت تصرّف قدرة الله تعالى ، فلا شيء يوجب الاشتباه .

ثم لما وردت نصوص الشريعة بوجودِ اعتقاد البعث : أى أن الله تعالى يعيد الأموات يوم القيامةِ ويحييهم ، كان المشركون فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام يوردون الشبه على القولِ بالبعثِ ، ويقولون : كيف يحيى الله تعالى الأموات بعد مفارقتهم الحياة وفنائهم وتفرّق أجزائهم بين أجزاءِ الأرض ؟ فكان القرآن الشريف يرد عليهم تلك الشبه فى آياتٍ كثيرة بما معناه : أنّ الله تعالى تام القدرةِ كامل العلم ، لا يعجزه شيء مهما كان

عظيما. ولا يخفى على علمه شيء. مهما كان دقيقاً خفياً، والذى أوجد الكائنات من العدم بذلك الاتقان والاحكام هو قادر على إعادة الأموات بعد الفناء، وإحيائهم للحساب والجزاء، ويضرب لهم سبحانه الأمثال التى تقرب ذلك لعقولهم: بأن الله تعالى يحيى الأرض بعد موتها بانزال المطر عليها فتصبح مخضرة مزهرة بهجة بعد أن كانت قاحلة يابسة لا ترى فيها أثراً للحياة إلى غير ذلك من الأمثال التى ترفع عنهم شبه البعث التى قامت عندهم.

ثم إن علماء الشريعة الأعلام، لما وجدوا للفلاسفة المنكرين للبعث شبهاً أخرى، يزعمون فيها حصول محالات عقلية على القول بالبعث قال أولئك العلماء - رحمهم الله تعالى: إن الواجب شرعاً على كل مكلف أن يعتقد بحصول البعث والاعادة، وأن ذلك يحصل على وجه لا يستلزم محالاً عقلياً: والله أعلم بكيفية ذلك، ولا يلزمنا لصحة الإيمان بالبعث أن نبين الكيفية التى يجريها الله تعالى فى أمر البعث. بل نفوض علمها إليه تعالى، ولكنا للمحافظة على أفكار الضعفاء فى الدين من الاضطراب نقول فى توضيح ذلك: من الممكن أن المعاد من الجسم بالبعث هو جميع أجزائه الأصلية. أى الباقية من أول العمر إلى آخره لا الأجزاء الفضلية التى تتكون فى الجسم من الأغذية ثم تتحلل ويخلفها غيرها وهلم جراً، وإذا كان الأمر كذلك فما المانع من أن الله تعالى العظيم القدرة. الواسع العلم يحفظ تلك الأجزاء الأصلية للإنسان بعد موته من التفرق. ومن زوال صورتها،

ومن دخولها فى أجزاءٍ أصليّة لحيوانٍ آخر يأكل إنسانا ، وإن
دخلت فى تركيب الأجزاءِ الفضليَّة لذلك الحيوانِ فتنفصل عنها عند
انحلالها بموت ذلك الحيوانِ ؟ ثم عند الإعادة والبعثِ يُعيد الله
تعالى تعلق الروح بتلك الأجزاءِ الأصليّة للانسانِ ويضم إليها
أجزاءً فضلية يكمل بها مِقْدارَ الإنسانِ وهيكله كما كان قبل الموت
سواء كانت تلك الأجزاء عينَ ما كانتْ قبل موتِ الإنسانِ أو غيرَها ،
ويكون الإحساس بالتنعيم والتعذيب إنما هو لمجموع الروح ولهذه
الأجزاءِ الأصلية ، ويصدق على هذه الكيفية أنها إعادة ، إذ قد
أُعيد تعلّق الروح بالأجزاءِ الأصليةِ التى هى حقيقة الإنسانِ بعد
أنْ فارقها ، وأُعِيد لهذه الأجزاءِ الأصلية الحياة ، وأُعِيدت إليها
أجزاء فضلية كمُل بها هيكل الإنسانِ الذى كان قبل الموت ، وإذا
كان الحال كذلك فلا يُقال من شبهِ أولئك الفلاسفة : إنّ الإنسان
المُنعَم أو المُعذَّب هو غير الذى كان قبل الموت ، ولا يُقال : إن
الروحين تتعلقان بجَسَد واحدٍ فيما إذا أكل إنسان إنسانا وصارا
بالاغتذاء واحِدًا ، ولا يُقال إنّ مادةً واحدةً حاصلة لأناسٍ كثيرين
حيث إنّ المشاهد على ظاهِر الأرضِ أجزاء جُثث الموتَى القديمة ،
وقد زرع فى الأرضِ زروع كثيرة ، وغُرِس فيها أشجار واغتذى
منها الناس ، وانعقد ذلك فى أبدانهم لحماً ودمًا ، لأنا مع جميع ذلك
نقول : إنّ الأجزاء الأصلية التى كانت مع الروح المتعلّقة بها قبل
الموتِ إنسانا هى بعينها مع الروحِ المتعلّقة بها عند البعث ذلك الإنسان
بعَينه ، وقدرة الله تعالى وعِلمه يصلحان لإجراء هذه الكيفية التى

لا تتضمن محالاً أصلاً، وعدم إحساسنا بها لا يستلزم عدمها، إذ يحتمل أننا نشاهد تفرق الأجزاء الفضلية، ولا نشاهد الأجزاء الأصلية التي هي حقيقة الإنسان، إما لدقتها، وإما للطافتها، وإما لغير ذلك، وكم من العوالم لم تزل في حيز الخفاء محجوبة عن حواسنا ولا مانع أن تكون هذه من هذا القبيل. والملخص أن نصوص الشريعة نطقت بالإعادة والبعث فنحن نؤمن بذلك ونعتقد أنه سيكون على وجه لا يستلزم محالا، ولا يلزمنا بيان الكيفية على وجه التفصيل وإن احتجنا إلى هذا البيان نجد أن مثل تلك الكيفية التي قررناها كافية وافية في إقناع المعقول ودفع الشبه، كما لا يخفى على المتأمل المنصف، وإن كنا غير مكلفين باعتقاد هذا التفصيل الذي شرحناه، بل الذي نكلف به الإيمان بالبعث على وجه لا يستلزم محالاً كما تقدم، ثم نقول: وفي القول بالأجزاء الأصلية التي مر شرحها تندفع الشبه عن نعيم القبر وعذابه اللذين وردت بهما النصوص الشرعية، إذ يقال: ما المانع أن الله تعالى يجعل للروح تعلقاً خاصاً بتلك الأجزاء الأصلية بحيث تحس بالنعيم أو العذاب وهي في القبر؟ ونحن وإن كنا نشاهد الجسد قد تفرق وتلاشى ولا حياة فيه فتلك الأجزاء الأصلية يجري فيها التنعيم والتعذيب، ولا نرى شيئاً من ذلك لخفائها عن أبصارنا لدقتها أو للطافتها، وكذلك تندفع الشبه الواردة على ما جاء من نصوص الشريعة أن بعض الناس هم أحياء عند ربهم يرزقون كالشهداء، فإنه يقال أيضاً لا مانع أن الله تعالى يجعل لأرواحهم تعلقاً خاصاً بأجزائهم الأصلية

بحيث تكون حية حياة تقبل الرزق والتنعم بنوع مخصوص، هو الذى أخبرت عنه النصوص، وإن كنا لا نرى ذلك؛ وكل ذلك من الجائزات العقلية التى لا تستلزم محالا وداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى، ومن اطلع على ما يقوله المتأخرون من الطبيعيين فى أحوال الحيوانات الصغيرة التى لا ترى إلا بأكبر المجسمات للمرئى من أن لها إدراكا وإحساسا وسعيا على معاشها واحتراسا على حياتها، ومقاتلة بعضها لبعض، واحتيالا على تحصيل رزقها وغير ذلك لم يستبعد مما قررناه فى حق الأجزاء الأصلية للإنسان وقبولها لتعلق أرواحها بها وإحساسها بما يريده الله تعالى لها من نعيم أو عذاب من غير أن نشعر نحن بشىء من ذلك، والله على كل شىء قدير.

ثم ما ورد من أن أعضاء الخلق وجلودهم والأرض تشهد عليهم من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى كما تقدم توضيح نظيره فى بيان معجزات الرسل: من أن منها نطق الجمادات، بحيث أن الله تعالى هو الخالق لصفة الكلام فى الإنسان ولا يتوقف خلقه لها على حياة ولا غيرها كما أقيم على ذلك البرهان، فلا مانع أنه تعالى يخلق فى تلك الأشياء الكلام، وتشهد على العصاة بأعمالهم، وحكمة ذلك تخويف العباد من ارتكاب المعاصى عند ما تخبرهم الرسل أن أعضاءهم وجلودهم والأرض التى يعصون عليها تشهد عليهم يوم القيامة، وأيضا إظهار عظمة قدرة الله تعالى فى ذلك اليوم وظهور بالغ حجته على العباد (ولله الحجة البالغة).

ثم إنّ الصِّراط الذى يُمَدّ على جهنم لمرور الناس عليه كما تقدّم شرحه ليس فيه شىء يستبعده العقل ، لكن فى بعض روايات وردت فى وصفه ليست من الروايات المتواترة وإن اشتهرت أنّ الصراط يكون أدقّ من الشعرة ، وأحدّ من السيف وهذه الكيفية قد يستبعدها بعض الضُّعفاء وإن كانت من الجائزات العقليّة الداخلة تحت تصرّف قدرة القادر العظيم ، ومع ذلك فقد نازع فى صحّة ذلك بعض العلماء الأعلام : كالعز بن عبد السلام ، والشيخ القرافى ، والبدر الزركشى ، كما نقله الباجورى على (الجوهرة) قالوا : وعلى فرض صحة تلك الرواية فهو محمول على غير ظاهره ، بأن يؤوّل بأنه كناية عن شدّة المشقة زاد القرافى أنّ الصحيح أنّ الصراط عريض وله طريقان يمنى ويسرى . فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال ، وعلى هذا التقرير فلا إشكال يبقى هنا حتى على أفكار الضُّعفاء ، ويكفى المكلف الإيمان بوجود الصراط ولو على هذه الكيفية والله تعالى أعلم .

ثم مما تقدّم فى العلامات الكبرى ليوم القيامة طلوع الشمس من مغربها ، والذى ورد فى ذلك الحديث الشريف أنها تطلع من مغربها حتى تتوسّط السماء ثم تعود فتغرب فى جهة المغرب وتستمر بعد ذلك على عادتها الأصليّة ، وهذا من الجائزات العقليّة الداخلة تحت تصرّف قدرة الله تعالى ، فمن يؤمن بوجود الله تعالى وعظيم قدرته لا يصعب عليه الإيمان بذلك ، وقد مرّ توضيح جواز هذا

الأمر فى نظيره من وقوف الشمس ورجوعها معجزة لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولسيدنا يوشع عليه السلام عند بيان معجزات الرسل وقررنا ذلك هناك بأوضح بيان فارجع إليه إن شئت فى فصل المعجزات ، والله تعالى أعلم .

ثم مما تقدم أيضا من تلك العلامات خروج يأجوج ومأجوج وهما أمتان عظيمتان قد جاء ذكرهما فى القرآن الشريف ، وأن ذا القرنين سد عليهما طريق خروجهما من أرضهما بالسد الذى اصطنعه ، وأن ذا القرنين قال ما معناه : إن هذا السد إذا جاء وعد ربى جعله دكاء أى منهدما ، وفسر المفسرون مجىء وعد الله بمجىء يوم القيامة أى قربه ، وقد جاءت أحاديث صحيحة بتفصيل خروج يأجوج ومأجوج فى آخر الزمان ، وأن ذلك من علامات القيامة الكبرى فوجب على كل مكلف الإيمان بذلك ، وما يقال من أن علماء الجغرافيا قد ساحوا الأرض ولم يعثروا على محل يأجوج ومأجوج فهو كلام لم يمنع صدق تلك النصوص الشرعية الواردة بوجودهم فى الأرض ، وبيان ذلك أنا نقول أولا : لانسلم أن الجغرافيين ساحوا جميع بقاع الأرض ولم يدعوا بقعة منها إلا وردوها ، إنما ساحوا البقاع المسكونة أو القريبة منها ، وكم من بقاع كثيرة ، وأودية ، وجبال توجد فى أطراف الأرض لم تطأها أقدامهم لا سيما فى الأطراف الشمالية خلف جبال الجليد ونهاية المنطقة المتجمدة الشمالية كما يعلم ذلك من الاطلاع على شروحهم المسطورة فى كتبهم ، ولعل هاتين الأمتين توجدان فى بعض بقاع

الأطراف التي لم يصل إليها أحد من أهل الجغرافيا . وثانياً قد قال علامة المفسرين الإمام الرازي رحمه الله تعالى : إن الأظهر أن موضع السد في ناحية الشمال ، ولا يخفى على العارف بتخطيط الأرض أن جهات الشمال بعد سيبريا توجد جبال جليدية لا تنقطع عنها الثلوج في جميع الفصول ، ولا يمكن لأحد في هذه العصور سلوكها ، ومن المعلوم أيضاً أنه يوجد بعده مسافة من الأرض ممتدة إلى انتهاء الأرض وحينئذ نقول : ما المانع أنه يوجد خلف هذه الجبال أراض منخفضة عنها بحيث تتسبب عن انخفاضها خفة الثلوج عنها بحيث تصلح لسكنى البشر ، وأن يكون يأجوج ومأجوج ساكنين في تلك الأراضي المنخفضة ، ومن الجائز أن يكون في زمان ذي القرنين الذي مضى عليه إلى هذا الزمان ألوف من السنين يوجد واد منخفض موصل لتلك الأراضي وطريق لها ، وكانوا يخرجون منه للأمم المجاورين لهم خارج تلك الجبال ويقاتلونهم فسد عليهم ذو القرنين مسلك ذلك الوادي وحصرهم خلف تلك الجبال ، وصاروا غير قادرين على الخروج من الوادي لوجود السد ، ولا يمكنهم تسلق الجبال لوجود الثلوج عليها ، ثم بعد ذلك حدثت حوادث جوية وتتابع نزول الثلوج عليها حتى سدت ذلك الوادي وملأته حتى ساوته بالجبال التي حوله وخفي أثره ، ثم عند قرب يوم القيامة يذوب الثلج منه بأسباب جوية أو أرضية كالزلزلة ويتيسر للأمتين المذكورتين هدم السد والخروج في ذلك الوادي طبق ما جاءت به النصوص الشرعية ، وبوجود الحوادث الجوية التي

توجب تراكم الثلوج فى بعض الأماكن مئات من السنين ، ثم زوالها بأسباب أخرى غير مستحيل لا عقلاً ولا عادةً ، بل إذا فتشنا التاريخ نجد لذلك شواهد ظاهرةً كثيرةً على وجه الأرض ، وقدرة الله تعالى صالحة لإجراء تلك الأعمال كلها وإتمام ذلك التدبير وحيث كان ذلك جائزاً داخلا تحت تصرف القدرة الإلهية ، وقد وردت النصوص بخروج هاتين الأمتين فى آخر الزمان فنحن نؤمن بذلك ونصدقه ، وبما قررناه ارتفعت الشبهة التى مستندها سياحة الجغرافيين .

هذا . وأما ما يذكر فى بعض الكتب أن محل يأجوج ومأجوج فى المحل الفلانى من الأقاليم القريبة المعمورة ، وأن الملك الفلانى الأموى أو العباسى أرسل إلى السد من نظره إلى غير ذلك من الأخبار ، فهى من تأليفات القصاص لا أصل لها يعتمد عليه وإن اغتر بنقلها بعض المؤلفين ، والله تعالى أعلم .

ثم مما ذكر فى تلك العلامات ليوم القيامة نزول سيدنا عيسى عليه السلام من السماء ، وهو أمر جائز عقلا ، كما أن صعوده إلى السماء عند ما طلبته اليهود لتقتله هو أمر جائز أيضاً ولا يترتب على ذلك أدنى محال ، فما المانع أن الله تعالى يصعده وينزله بواسطة الملائكة الذين أعطاهم الله تعالى القدرة على الصعود والهبوط بين السماء والأرض ؟ كما يأتى بيان ذلك ، ويحفظ الله تعالى حياته من جميع ما يتوهمه المتوهمون فى حق من يصعد إلى فوق كرة الهواء ، فإن احتياج الإنسان لتنفس الهواء ما هو إلا أمر عادى ، والله تعالى

قادر على حفظ الحياة بدونه. وكذلك من تلك العلامات خروج الدابة التى تكلم الناس هو أمر جائز، والله تعالى قادر على إعطاء الدابة صفة الكلام. وكذلك وجود الدخان فى الأرض أربعين يوماً كل ذلك من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف القدرة الإلهية لا شىء من ذلك يستلزم محالاً، فنؤمن بجميع ذلك ونصدق به، ولله تعالى بحكم فى جميع ما تقدم: من أحوال البعث والسؤال والميزان والصراط، وغير ذلك نجد كثيراً منها مذكوراً فى مطاوى كلام علماء الإسلام، والله يتولى هدانا أجمعين.

ولنختم هذا الباب بذكر أدلة عقلية على حصول البعث والجزاء وهى وإن لم تكن برهانية قاطعة فهى إقناعية تذعن عندها العقول وتطمئن لها القلوب، وبتواردها بمجموعها على الفكر يجزم العقل بوقوع البعث والجزاء، ولا يعير للشك أذناً صاغية.

إعلم أن البعث والجزاء وإن كان المشهور أن دليل جوازهما عقلى كما علمته مما مر، ودليل حصولهما بالفعل شرعى، وهو النصوص الشرعية الواردة فى القرآن الشريف، والحديث المنيف لكن إذا دقق النظر وجد أن لحصولهما دلائل عقلية اقناعية تطمئن لها القلوب كما قلنا، فاستمع ما يتلى عليك من كلام العلماء الأعلام فى ذلك فنقول:

إنه بعد إقامة البراهين القاطعة على وجود إله العالم واتصافه بصفات الكمال: من الحكمة والعدل والرحمة لخلقه، لا شك أن كل معتقد لذلك يظهر له أن من حكمته تعالى وعدله بعد أن خلق

الخلق ، وأعطاهم عقولا يميزون بها بين الحسن والقبيح ، وقدرا بها يقدرون على الخير والشر أن يمنعهم عن سوء اعتقادهم به ، وعن الجهل والكذب ، وإيذاء الصالحين من خلقه وغير ذلك من القبائح ، ويرغبهم فى عمل الخير واتصافهم بالأخلاق الفاضلة التى ينتظم بها معاشهم ، ومن المعلوم أن هذين الأمرين لا يتمان إلا بربط عمل الخير بالثواب ، وعمل الشر بالعقاب ، وكل من الثواب والعقاب غير حاصل فى دار الدنيا فلا بد من دار أخرى يحصل فيها ذلك ، ولا يقال إنه يكتفى فى الترهيب والترغيب بما أودع فى العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات ، لأن الهوى والنفس يدعوان الإنسان إلى الانهماك فى الشهوات الجسمانية ، واللذات الجسدية ، وإذا حصل هذا حصل هذا التعارض بين ما تدل عليه العقول وبين الهوى والنفس ، فلا بد من مرجح قوى ، ومعاضد كامل . وما ذلك إلا ترتيب الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب على الفعل والترك .

ثم من حكمة السلطان الحكيم الرحيم أن يبعث نفوس رعيته للعطف على الفقراء ، ليعينوهم بشىء من الأموال على مصالح معاشهم ، واللائق بالأغنياء أن تكون تلك الإعانة منهم على وجه الرغبة ، وانشراح الصدر ، وبذلك يصلح حال الفقراء ، ويندفع عنهم الشقاء ويفارقهم العناء فى الجملة ، وحيث إن النفوس مفطورة على حب المال ، ولا تسمح بصرف شىء منه إلا إذا وجدت عوضا هو خير منه فكان من حكمة الله تعالى أن يجعل دارا غير هذه الدار يكافىء

فيها بالخير المتصدقين على الفقراء والمساكين ، ويجازى مانعى الصدقات والزكوات بما يستحقون ، فإذا علم الأغنياء بوجود دار أخرى ، وأنهم يكافئون فيها على الصدقة بعشر أمثالها فحينئذ ينفقون على الفقراء والمساكين برغبة وانشراح صدور لما يرجونه من نوال الأجور ؛ بل يرغبون أيضاً فى الصدقات الجارية التى لا تنقطع فيرصدون الأوقاف الجسيمة ، ويشيدون للصلوات والأذكار ، وإطعام الطعام المساجد والزوايا ، والتكايا العظيمة ، فينتج عن ذلك من الخيرات ما لا يدخل تحت الحصر ، وكل ذلك ناشىء عن الرغبة فى نعيم الدار الآخرة ، والنجاة من عذابها ، ولولا ذلك لما كان من تلك المآثر الخيرية إلا أقل القليل .

ثم إن السلطان العادل الحكيم الرحيم إذا كان له جمع من الرعية وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء كان من حكمته وعدله ورحمته ، أن ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القوى ، والله سبحانه وتعالى سلطان حكيم عادل رحيم ، فمن حكمته وعدله ورحمته أن ينتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين ، وهذا الانتصاف لم يحصل فى هذه الدار ، لأننا نرى المظلوم قد يبقى فيها مهاناً ، فى غاية الذلة والقهر ، مسلوب المال ، مفضوح العرض ، والظالم يبقى فى غاية العزة والقدرة فلابد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الإنصاف .

ثم إنه لو لم يحصل للإنسان معاد لكان الإنسان أخس من جميع الحيوانات فى المنزلة والشرف ، وبيان ذلك : أن مضار

الإنسان فى الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات ، فإن سائر الحيوانات قبل وقوعها فى الآلام والأسقام تكون فارغة البال ، طيبة النفس ، لأنه ليس لها فكر وتأمل ، أما الإنسان فبسبب ماله من العقل يتفكر أبداً فى الأحوال الماضيـــة ، والأحوال المستقبلة ، فيحصل له بسبب أكثر الأحوال الماضية أنواع من الحزن والأسف ، ويحصل له بسبب أكثر الأحوال الآتية أنواع من الخوف فثبت أن حصول العقل للإنسان سبب لحصول المضار العظيمة فى الدنيا ، والآلام النفسانية الشديدة القوية ؛ أما اللذات الجسمانية فهى مشتركة بينه وبين سائر الحيوانات ، لأن السرقين فى مذاق الجعل طيب ، كما أن أفخر الحلويات فى مذاق الإنسان طيب ؛ فلو لم يحصل للإنسان معاد به تكمل حالته ، وتظهر سعادته لوجب أن يكون كمال العقل سبباً لمزيد الهموم والغموم والأحزان من غير جابر يجبر ذلك ، ومعلوم أن كل ما يكون كذلك فإنه يكون سبباً لمزيد الخسة ، والدناءة ، والشقاء ، والتعب ، الخالية عن المنفعة فثبت أنه لولا حصول السعادة الأخروية لكان الإنسان أخس الحيوانات ، حتى الخنافس ، والديدان . ولما كان ذلك باطلا قطعاً علمنا أنه لابد من الدار الآخرة ، والإنسان خلق للآخرة لا للدنيا نعم إن هذه الدار هى كالممر بين الأخيار والأشرار ، ليجزى الأولون بالثواب والآخرون بالعقاب ، لأن كل من كان شريراً فالنار أولى به ، ويكون حظه من الوجود ما يحصله من لذات هذه الدار الفانية ، فلذلك نراها موفورة لكثير من أهل الزيغ

الأشرار ، منغصة على كثير من أهل الإيمان الأخيار .

ومن هذا المقام يعلم أن مذهب المنكرين للمعاد من الكفار شر لا يماثله شر ، لأنه يلزم عنه أنه لا حلال ولا حرام أصلاً ، ومع هذا يمتنع العمران ، وقولهم : بأن نظام العالم يكمل بمعرفة الإنسان ماله من الحقوق ، وما عليه من الواجبات الإنسانية ، وهذه المعرفة تكمل له بالعلم الصحيح التام العام ، نقول في جوابه : إنهم قد غفلوا عن أن الأهواء والشهوات وحب اللذات ، لا يقاومها مجرد القوانين التي يقيمها العلم السياسي ، فلا بد من وازع آخر يزع النفوس عن المضار ، ومرجح يرجح اتباع طريق الخير وهجران سبيل الشر ، وهو الإيمان بالمعاد ، والمكافأة على الأعمال ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإلا فليتأمل العاقل في الإنسان إذا كان يعتقد أنه مثل نبات الأرض ينبت ثم يزول لا إلى رجعة ، وليس له حظ من وجوده إلا لذاته الحيوانية التي ينالها مدة حياته ، فمهما سن له العلم السياسي من الضوابط لمعرفة ماله وما عليه ، فإذا قدر على قتل سواه وأخذ ماله الذي يبلغ الملايين بدون أن يطلع عليه أحد من الناس ، أو هتك أشرف عرض وبلوغ لذة بدون اطلاع أحد ، فهل يظن أن تلك القوانين التي سنها له العلم السياسي تردعه عن ارتكاب ذلك ؟ لا يقول بذلك إلا مكابر ، ومن المعلوم أن الانسان مفطور على حب ذاته ، فمن يدري به حق الدراية لا يأمن له في شيء إلا إذا وجده مرتبطا بالدين ، وإنا نرى أن بعض الأمم تعتقد المعاد ويظهر فيها من بعض أفرادها ما يظهر من الفساد . فكيف

يكون حالها لو نسخ هذا الاعتقاد منها؟ فبلا شك أن فسادها يصير عظيما جداً، على أننا نرى الأمم التى انتشر بينها العلم الدنيوى، لاسيما السياسى فى هذا الزمان لا تزال آخذة فى سبيل الشرور، بل كلما ازداد ذلك العلم بينها ازدادت شرورها، وفشا بينها الزنا الذى يضيع الأنساب ويحل عقد التناصر، وقتل النفس والانتحار وإزالة العقل بالمسكرات، والاحتيال: بفنونها وصنائعها على سلب الأموال، والغش، والخديعة، وكثير من الأخلاق بنظام الهيئة الاجتماعية، وما ذلك إلا لأن علومها التى برعت فيها ليس لها فى اعتقاد المعاد نصيب، وبالظن أن تلك الأمم لولا بقية من اعتقاد المعاد قائمة بينها لوجدناها قد هوت للدمار، وأخذت تنمحى من لوح الوجود.

ومما يضحك الثكلى أن القوم الذين ينكرون البعث والمعاد لما لاحظوا أن العلم لا يتكفل بنظام الهيئة الاجتماعية إلا إذا كان تاما عاما فى جميع الأفراد الإنسانية اشترطوا فى تكفله بذلك أن يكون تاما عاما ثم قالوا: لابد من ذلك يوما ما إلا أن ذلك بعيد جداً، وربما يلزم له ألوف من الأجيال، فهم فى رفضهم لاعتقاد المعاد وتمنيهم فى العلم هذه الأمانى الواهية مثل الطبيب الأحمق الذى يقول للمريض بالمرض القتال: اترك الحمية وكل ما شئت، وإنى بعد كذا وكذا من السنين آتيك بدواء يكون به شفاؤك، فإلى أن يأتيه بذلك الدواء يكون المريض هلك وأصبح عظاما نخرة. على أنه ليس من حسن التدبير وكياسة الرأى والأخذ

بالحزم مع عدم اعتقاد أولئك المنكرين للمعاد أن يجاهروا به بين العموم ، حتى يروا أن العلم الذي يزعمونه بمجرده متكفلا بحفظ نظام العالم قد تم وعم ، وإلا فهم بمجاهرتهم بهذا القول الباطل قد فتحوا باب الدمار على العالم ، ونعوذ بالله تعالى أن يشيع هذا الفكر بين الأمم ، ومعاذ الله تعالى أن يشيع والعقول تأباه ، هدانا الله وإياكم لما فيه خير الأنام .

والنصيحة لهؤلاء المنكرين أن يأخذوا بالحزم والاحتياط ، ويتصوروا أنهم إذا صدقوا بالمعاد وتأهبوا له ، فإذا كان حقا نجوا ، وإن كان باطلا لم يضرهم هذا الاعتقاد ، غاية ما في الباب أن يقال : إنه تفوتهم اللذات الجسمانية لكن هذه اللذات يجب على العاقل أن لا يبالي بها ، لأمرين : أحدهما أنها في غاية الخساسة ، لأنها مشترك فيها الخنفساء والديدان . والثاني أنها منقطعة سريعة الفناء والزوال ، فالحرص عليها لا يساوي ترك الحزم والاحتياط في الأمر الذي تخشى عواقبه . والله الموفق .

الباب الثالث

في ردّ شبه عن نصوصٍ شرعية تعتمد في الاعتقادِ أو التوفيق بينها وبين ما يثبت بالدليل العقليّ القاطِع مما ينافي المعاني الظاهِرة لتلك النصوص ، وفيه أربعة فصول

اعلمْ أننا في هذا المقامِ نحتاجُ إلى ثلاث مقدّمات :

(المقدمة الأولى) ليعلمْ أنّ النصوصَ الشرعية التي يُعتمدُ عليها في الاعتقادِ ، كما يُعتمدُ عليها في أحكامِ العِبادات ، وأحكامِ المعاملات هي الآياتُ القرآنيّة وبعضُ أحاديثِ نبويّة ثبتَ نقلها لنا عن الرسولِ عليه الصلاة والسلامُ ثبوتاً قطعياً يُسمّى بالمتواتر ، أو بعضَ أحاديث ثبتَ نقلها عنه عليه السلامُ ثبوتاً قريباً من القطعِيّ يُوجِب طمأنينةَ القلبِ ، والطمأنينة هيَ فوق الظنّ ودون اليقين ، وتسمى هذه الأحاديث بالمشهورة ، ثم إنّ كلّ نصٍ من هذه النصوص يجب علينا أنْ نعتمِد فيه معناه الظاهِر المتبادر منه ، ولا يسوغ لنا تأويله وصَرْفه إلى معنىً آخر غيرِ متبادِرٍ إلا إذا قامَ دليلٌ عقلي قطعي يناقض معناه الظاهرَ ، فحينئذ يكونُ قيامَ ذلك الدليلِ العقلي قرينة دالّة لنا على أنّ معناه الظاهرَ غيرُ مرادٍ للشارع ، بل مراده معنى آخر غيرَ ما يتبادر منه ، فنؤوّل النص حينئذ ، ونصرّفه إلى معنى آخر غيرِ الظاهِرِ المتبادر على سبيل الاحتمالِ يكونُ قابلاً له ، وغيرَ مناقضٍ لذلك الدليل العقلِي القطعِيّ . هذه هي القاعدة الكلية

فى النصوصِ الشرعيّة التى اعتمدها أهل السنة والجماعة ، وإنما لم يجز إرادة غيرِ المعنى الظاهر من النصّ إلّا لداعٍ يدعو إليه لأنّ الأصل فى التخاطب إرادة المعنى الظاهر المتبادر دون خلافه . إذ إرادة غير الظاهر من غير داعٍ ولا قرينةٍ يكون خللا فى الإفادة والاستفادة ، وفى ذلك من المفاسد ما لا يخفى ، وإنما انحصر الداعى إلى تركِ الظاهر بمعارضة الدليل العقلى القاطع ، لأنّ رفض هذا الدليل رفض الأصلِ الذى ثبت به صِدق الرسول عليه الصلاة والسلام وهو العقل ، إذ لولاه لما أمكننا الاستدلال على صِدقه عليه السلام بدلائل المعجزات ورفض العقل يوجب رفض الشرع . وأما معارضة الدليل العقلى الظنى فلا تكون داعياً لتركِ الظاهر من معنى النصّ ، لأنّ رفض الدليل الظنّى لا يوجب رفض العقل كما هو واضح لاحتمالِ أنّ هذا الظنّ باطل فى نفس الأمر فلو تركنا الظاهر من النصّ لأجلِ الدليلِ الظنّى لكنا فى معرض أن يكون اعتقادنا خطأ لاعتمادِنا على الظنّ ، وحينئذ لا نعذر فى ذلك إذ لا ضرورة تدعونا إليه كما تدعونا الضرورة عند معارضة الدليلِ العقلى القطعى ، على أن اتباع الدليل الظنى وترك ظواهر النصوص يوجب اختباطاً واختلاطاً فى الاعتقادِ لا يحد ، فإنّ الظنون كثيرة ، والاعتقاد فى الشرائع إنما يعتمد فيه اليقين ، فكان الصواب أن يتمسك بظواهر النصوص اليقينية الورود ، ولا يتحول عنها لمجرد الظنون ، ثم قد يوجد فى الأحاديث النبوية نصوص لا تتوفر فى نقلها عن الرسولِ عليه السلام الشروط التى تبلغ بها درجة المتواترا

أو المشهور ، فلا يكون ثبوت ورودها يقينياً بل ظنياً ، وتسمى بالآحاد ، ويعتمد عليها فى أحكام العبادات والمعاملات ، ولا يجب أن يعتمد عليها استقلالا فى الاعتقاد حيث إنها ظنية ، والاعتقاد لا يعتمد على الظن ، ولكن إذا نقلها العدول وصارت معتمد الفقهاء فى الأحكام لا يجوز إنكارها حيث لم يعارضها معارض عقلى ، لئلا يجر ذلك إلى إنكار المتواتر والمشهور الموجب إنكارهما الكفر ، أو التضليل والعياذ بالله تعالى ، نعم إذا اكتنف الآحاد ما يقويها ويجعلها يقينية الثبوت ، فيعتمد عليها حينئذ فى الاعتقاد ، كما قيل فى حديث عذاب القبر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(المقدمة الثانية) اعلم أنه لا يجب علينا شرعاً من الاعتقادات إلا ما قام عليه الدليل العقلى القاطع الذى لا يحتمل النقيض أو ما قام عليه الدليل الشرعى بأن نقل لنا عن الرسول عليه الصلاة والسلام آية قرآنية أو حديث متواتر أو حديث مشهور يدل على ذلك ، ولا يجب علينا تقليد غير رسول الله المعصوم عليه الصلاة والسلام فيما ثبت عنه قطعياً . وأما إذا نقلت لنا مسألة اعتقادية عن أكبر علماء الأمة الإسلامية من غير إظهار دليلها العقلى القاطع أو دليلها الشرعى الثابت قطعياً عن الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يجب علينا تقليده فى تلك المسألة ، لا سيما إذا كانت مناقضة لظاهر من ظواهر نصوص الشريعة التى تعتمد فى الاعتقاد ، نعم إذا أول بعض العلماء الذين يعتمد عليهم فى فهم النصوص الشرعية بعض تلك النصوص بتأويل مناسب موافق للقواعد الشرعية والأصول

العربية فالأخذ بتأويله سائغ غير مضر فى عقيدتنا إذا ظهر لتأويله داعٍ قوى مثل الدليل العقلى القاطع الذى يحمل على التأويل وصرف النص عن ظاهر معناه فإنه حينئذ يكون الأخذ بتأويله هو الصواب ، ولا يقال إننا قلدنا ذلك العالم فى الاعتقاد وإنما يكون اعتقادنا معتمداً على النص وقلدناه بفهم النص وتأويله ، لأنه هو أعلم منا بذلك . فمن هنا يظهر لك خطأ بعض أهل هذا العصر فى تقليد فلان الفلكى أو فلان الجغرافى أو فلان الجيولوجى المشهورين فى فنونهم فى بعض مسائل ربما تكون مخالفة لظواهر نصوص الشريعة التى تعتمد فى الاعتقاد : فهذا الحال ربما يوقع هؤلاء المقلدين فى الخروج عن الدين — والعياذ بالله تعالى وهم لا يشعرون ، والذى يوقع أولئك المقلدين فى تقليد فلاسفة هذا الزمان فى تلك المسائل هو أنهم نظروا لهم أدلة فى بعض مسائل فنونهم يقينية قطعية كأدلتهم فى المسائل الحسابية والهندسة وبعض التجريبات الطبيعية المحسوسة فاغتروا بهم وأوقعهم الوهم فى اعتقاد أن كل ما يقوله أولئك الفلاسفة صواب يقينى الثبوت ، وأنهم لا يعتمدون فى أدلتهم فى جميع فنونهم إلا على اليقين ، ولم يدروا أنه يوجد فرق بين أدلة المسائل الحسابية وما ذكر معها وبين أدلة كثير من المسائل الفلكية مثلاً بأن تلك يقينية وهذه قد يوجد بينها كثير من الظنون والتخمينات ، وقياس الغائب على الشاهد الذى قد يكون فى نفس الأمر قياساً فاسداً . وإن قيل إن بعض تلك المسائل التى يقلد بها المقلدون فلاسفة هذا الزمان تكون مجمعاً عليها عندهم . قلنا إنا

معشر المسلمين لسنا مأمورين فى شريعتنا بتقليد إجماع إلّا إجماع هذه الأمة المحمّدية : أى إجماع علمائها الذين هم أهل الاجتهاد وفهم نصوص الشريعة حيث شهد لهم الرسول عليه السلام بأنهم لا يجتمعون على ضلالة ، على أنّ إجماع هؤلاء الفلاسفة على بعض تلك المسائل قد يكون مبنياً على دليل ظنّى فلا يفيد عصمة إجماعهم من الخطأ لا سيما فى المسائل التى تكون بعيدة الموضوعات عنهم كما فى المسائل الفلكيّة والجوّية فإنّ معظم أدلتهم فيها الحدس والتخمين وقياس الغائب على الشاهد كما يعلم من الاطلاع على كتبهم التى تقرّر فيها تلك المسائل . ولنا عبرة فيما حدث على مذهب المتقدّمين من الفلكيّين فى وجود الأفلاك وما لها من الأحكام . فإنه قد مرّت عليه المئات من السنين وهم مجمعون عليه ، وكم ألفوا فيه من الكتب ، وكم دوّنوا من الأصول والقواعد ، وكم صوّروا صور الأفلاك وذكروا لها من الأحكام الطويلة العريضة ، فجاء المتأخرون وأبطلوه من أصله وصار بينهم يعدّ خرافة من خرافات البشر . إذا تقرّر هذا فاعلم أنه كان من حقّ أولئك المقلدين لفلاسفة هذا الزمان فى بعض المسائل المخالفة لظواهر نصوص الشريعة الإسلامية أن يبحثوا عن أدلتهم فيها ويطلعوا عليها ، فإن كانت ظنّية فلا يلقون لها بالاً ، ولا يتركون اعتقاد ظواهر نصوص شريعتهم القطعية الثبوت عن رسولهم الصادق المعصوم ، وإن كانت أدلة يقينية ولم يبق معها ريب فى دلالتها على ما يناقض ظهور نصوص الشريعة فحينئذ يسوغ لهم تأويل تلك الظواهر والتوفيق

بينها وبين تلك المسائل كما هو القاعدة التى مرّ تقريرها عند أهل السنة والجماعة ، وإن لم يكن أولئك المقلدون أهلاً للتأويل فليرجعوا فيه إلى علماء الدين الأعلام فيفهمونهم التأويل اللازم الجارى على قواعد الشريعة وأصول اللغة العربية التى جاءت بها النصوص الشرعية ويأمنون على إيمانهم الذى به سعادة الدارين ، والله الموفق .

(المقدمة الثالثة) إن الشريعة المحمدية ، بل وسائر الشرائع إنما يقصد منها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى باعتقاد وجوده واتصافه بصفات الكمال ، وإلى كيفية عبادته وأداء شكره ، وإلى الأحكام التى توصلهم إلى انتظام المعاش وحسن المعاد . وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم وما هى النواميس القائمة فى السماويات أو فى الأرضيات وأمثال ذلك فليس فى شيء من نحو هذا من مقاصد الشرائع ، بل هذه المباحث هى معارف تتوصل الناس إليها بعقولهم فربما ينتفعون بها فى دنياهم وربما يكون حظهم فيها مجرد الاطلاع ، والشرائع لا تلتفت إليها أولاً وبالذات ولا تعتني بتفاصيلها ، نعم قد تذكر شيئاً منها مجملا على قدر ما يكون له دخل فى مقاصدها الأصلية ، فتذكر مثلاً خلق السموات والأرضين وإبرازها من العدم واختلاف أنواع المخلوقات فى التنوعات وكيفية تدبير الأكوان ، وإعطاء كل منها نظامه على سبيل الإجمال ، لأجل أن يكون ذلك دليلاً عقلياً للناس على وجود إله العالم وعلى اتصافه بالعلم ، والقدرة ، والحكمة إلى غير ذلك ، وقد تفصل بعض تلك المباحث لداع يدعو إلى ذلك يكون مرجعه إلى مقاصدها ، إذا تقرر هذا فنقول : —

الفصل الأول

في رد الشبه عن النصوص الشرعية الواردة في السماويات والأرضيات أو التوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل العقلي القاطع مناقضاً لظواهرها

اعلم أنه قد ورد في نصوص الشريعة الإسلامية — التي تعتمد في الاعتقاد: أن الله تعالى خلق سبع سموات، وخلق جسماً كبيراً فوق تلك السموات يسمى كرسياً، وجسماً آخر فوقه يسمى العرش وأن بيننا وبين تلك الأجسام مسافات عظيمة - كما أن بينها مسافات، وأنه تعالى خلق جسماً كبيراً يسمى لوحاً، وجسماً آخر يسمى قلماً لإثبات ما يكون في العالم وتسطيره، لا عن حاجة إلى جميع ذلك بل لحكم هو يعلمها سبحانه، وأنه خلق داراً تسمى الجنة أعدها لنعيم الطائعين، وداراً أخرى تسمى جهنم أعدها لعذاب غير الطائعين بعد خراب عالم الأرض والسموات، وبعث الناس بعد الموت كما تقدم، وأنه خلق الكواكب وجعلها زينة السماء الدنيا، أي السماء القربى من الأرض فقال بعض علماء الإسلام: هي مركوزة في نفس السماء، وهو قول جمهور المفسرين. وقال بعضهم: هي دون السماء بينها وبين الأرض، وهو منقول عن مكي، وعن وهب، ونقله في مختصر الهيئة السنية للقرماني عن كثير من المفسرين وغيرهم، ونقل الشيخ مرعي الحنبلي في (عجائب المخلوقات) حديثاً آحادياً يدل عليه وكذلك نقل هذا الحديث أبو جعفر محمد بن عبد الله الكسائي

فى كتاب (الملكوت) ونقل الرازى أثراً عن كعب فى تفسير سورة (القدر) صريحاً فى أن الشمس دون السماء . وعلى هذا القول فيكون معنى كونها زينة السماء الدنيا أنها زينة لها بحسب مرأى الناظرين إليها — وإن كانت تحتها ، وهذا لا يلزم منه أن تكون مركوزة فى نفس السماء ، ولعل أصحاب هذا القول يتأولون قوله تعالى : (وجعل القمر فيهن نوراً) أى فى السموات نظير هذا التأويل ، وورد أيضاً من نصوص الشريعة ما يفيد أن كلا من الكواكب يسبح فى فلك ، فقال بعض علماء الإسلام : إن الفلك هو جسم يحمل الكواكب ، وقال بعضهم : هو مداره ، أى الحيز الذى تسير فيه من الفراغ ، وهذا قول الضحاك — كما فى الرازى ، والذى يحمله جمهور علماء الإسلام : أن السماء مرئية لنا — كما يستفاد من ظاهر بعض النصوص ، وقال بعضهم إنها غير مرئية وإنما المرئى الهواء ، نقله فى (عجائب المخلوقات) عن القاضى أبى بكر بن العربى ولا بد أن يؤول النص الذى يدل ظاهره على أنها ترى بتأويل مناسب وورد أيضاً فى النصوص الشرعية أن الله تعالى خلق سبع أرضين ، فقال بعض العلماء : إن المراد بها أقاليم أرضنا السبعة ، وقال بعضهم إن المراد طبقات الأرض المتراكمة على بعضها وروى فى بعض الآثار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن كل أرض منها كأرضنا وفيها عالم كعالمنا ، وورد من النصوص ما ظاهره أن الأرض منبسطة كما فى قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) وهو مذهب جمهور علماء الإسلام ، وقال بعضهم : إنها كروية وممن قال بذلك الإمام الرازى ، وتأولوا قوله تعالى : (دحاها) بأنه جعلها صالحة

لسكنى الحيوانات بعد أن لم تكن كذلك . وظاهر بعض النصوص يفيد أن الشمس هى التى تسير كما قال تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها) وقوله تعالى : (وجدها تطلع) و (وجدها تغرب) وكما يفهم من استعمال أهل الشرع فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبعده من قولهم : طلعت الشمس ، وغربت الشمس ، وظاهر ذلك أن الأرض ساكنة وإن لم يرد تصريح بحركتها ولا بسكونها ، فيجب علينا معشر المسلمين الإيمان بما تعطية ظواهر هذه النصوص ، والأخذ بقول جمهور العلماء فيما فهموه منها ، وتأويل بعض العلماء المخالف للجمهور وإن كان الأخذ به لا يضر فى الدين بفساد الإيمان لأنه جار على تأويل مناسب ولكن حيث لم يظهر لنا داع قوى يدعو لذلك التأويل فالأخذ بقول الجمهور واعتمادنا على ما فهموه من النصوص يكون هو الموافق لقواعد الدين الإسلامى

فإن قيل : إن المتأخرين من الفلاسفة الفلكيين يدعون أنهم بأرصادهم وبوسائط الآلات التى اخترعوها للنظر فى أحوال السماويات قد ثبت عندهم أنه لا يوجد فى الكون إلا الكواكب ، وأن أرضنا التى نحن عليها هى كرة ومعدودة من جملة الكواكب وأن الشمس واقعة فى الوسط تدور فقط على محورها دورة بطيئة ، والأرض وجميع الكواكب تدور حولها بواسطة ناموس يسمى ناموس الجاذبية ، وأن لأرضنا كما لغيرها من الكواكب دورتين دورة سنوية حول الشمس منها تتولد الفصول الأربعة ، ودورة يومية على محورها ، ومنها تتولد أوقات الليل والنهار بواسطة مقابلة نور الشمس تارة والاستتار عنه أخرى ، وأن الذى نراه من الزرقة

إنما هو لون الجو وليس هو سماء إذ لا وجود للسموات عندهم ولا يقولون بوجود أرضين غير هذه الأرض ، وشاعت أقوالهم هذه وأخذ بها الكثير من عامة الإسلام من غير التفات إلى التوفيق بينها وبين النصوص الشرعية التي تقدمت ، فكيف يكون التوفيق وما الحكم في ذلك ؟ قلنا : قد تقدم لك أنه يجب علينا اعتقاد ظواهر النصوص الشرعية ، واعتماد ما عليه الجمهور في فهم معانيها ، ولا يجوز لنا تأويل النصوص وصرفها عن ظواهرها إلا لداع قوى ، وهو قيام الدليل العقلي القاطع المناقض لظواهر النصوص ، ولا يجوز لنا تقليد علماء الإسلام في أمر الاعتقاد من غير أن يظهروا لنا دليلاً عقلياً أو شرعياً فكيف بمن سواهم ، وعلى هذا فمن بلغه منا معشر المسلمين أقوال أولئك الفلكيين المتأخرين من غير دليل عقلي قاطع يثبت كل مسئلة من المسائل التي يدعونها فيما تقدم ، أو بدليل ظني لا ينتج اليقين فعليه ألا يلتفت لكلامهم ، ولا يتحول عن اعتقاد ما تعطيه ظواهر النصوص الشرعية التي تقدم نقلها ، ولا يميل اعتماده على ما فهمه جمهور علماء الإسلام منها ، هذا هو الواجب عليه ، والحافظ لإيمانه من الاختلال . وأما إذا بلغ أحداً منا كلامهم المتقدم مع إقامتهم له الدليل العقلي القاطع الدال على كل مسألة من المسائل المذكورة من مسائلهم ، ويكون ذلك مناقضاً لظواهر النصوص التي تقدمت بخصوص تلك المسائل فعليه أن يرجع حينئذ إلى القاعدة الكلية التي تقدم لنا تقريرها ، وهي تأويل تلك النصوص وصرفها عن ظواهرها إلى احتمال معان تناسب ما قامت عليه أدلة أولئك القوم العقلية القطعية اليقينية ، ولا ضرر

عليه فى ذلك بعد أن يتحقق صحة أدلتهم وإفادتها اليقين الذى لاشبهة فيه . إذا تقرر هذا فنقول فى رد شبه هذا المقام ، والتوفيق بين نصوصه وبين مايفرض تحققه من الأدلة اليقينية المناقضة لتلك النصوص .

أما قول أولئك الفلكيين : إن الكواكب قائمة فى الفضاء بناموس الجاذبية وليست مركوزة بسماء فهو أمر جائز عقلا داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ويكون ذلك الناموس من جملة الأسباب العادية التى وضعها الله تعالى فى الأكوان ، فإذا قام لنا الدليل العقلى القاطع على قيام تلك الكواكب فى الفضاء كما يقولون: نتأول النص الذى ظاهره أن الكواكب مركوزة فى السماء وهو قوله تعالى : (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) بأنه من المحتمل أن يكون مراده تعالى بكونها زينة أنها زينتها بحسب مرأى الرائين وإن كانت تحتها — كما قال بذلك جملة من علماء الإسلام ، وتقدم نقله عن مكى ، ووهب ، وكثير من المفسرين ، وكعب ، ونأخذ بقول من قال من علمائنا : إن المراد بأفلاك الكواكب هو مداراتها من الفضاء الذى تدور فيها لا أنها أجسام تحملها ، ولنكون قد جرينا على قاعدة التأويل عند قيام الدليل القطعى المعارض مع الموافقة لجملة من العلماء على أسهل وجه .

وأما قول أولئك الفلكيين : إن المرئى لنا من الزرقة هو لون الجو ، فغاية ما عندهم من الدليل أن نظاراتهم المجسمة لم تكشف لهم جسما غير الكواكب قائمة فى الفضاء ، ولذلك أنكروا وجود السماء ، ونقول : ما المانع أن السماء لشدة بعدها عن الأرض بمسافات شاسعة

ما عادت النظارات صالحة لأن تحقق جسميتها لهم ويمكن أن يكون لونها هو الذى تخفى حقيقة جسميتها ؟ وهذا هو الذى أوهمهم عدم وجود جسم فى الفضاء غير الكواكب ، على أن بعض علماء الإسلام وهو القاضى أبو بكر بن العربى قد قال : بأن السماء غير مرئية ، وتأول النص الذى ظاهره أنها ترى — كما تقدم ، ولا يلزم من عدم رؤيتها عدم وجودها كما هو القاعدة المسلمة ، من أنه لا يلزم من عدم الوجدان عدم الوجود ، والله تعالى أعلم .

وأما قول هؤلاء الفلكيين : إن الأرض كرة فبعد إقامتهم لنا الدليل العقلى القاطع الدال على كرويتها لا مانع لنا من القول به ويمكن تأويل النص الذى ظاهره أنها مبسوطة كقوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحاها) بأن جعل سطحها صالحاً للسكنى بعد أن لم يكن كذلك مع أنها فى نفسها كرة كما قال به الإمام الرازى وغيره ، ولا بد أنه قام الدليل القاطع لدى من قال من علماء الإسلام بكرويتها . والله تعالى أعلم .

وأما قولهم : إن الشمس لا تسير حول الأرض ، وإنما لها دورة بطيئة على محورها والأرض هى التى تدور دورتين : إحداهما سنوية حول الشمس تتولد منها الفصول الأربعة ، والأخرى يومية على محورها تتولد منها أوقات الليل والنهار ، فنقول : هذا من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى . فإذا أقاموا لنا الدليل العقلى القاطع على ذلك فلا مانع من القول به ، ونتأول ما ظاهره من النصوص الشرعية أن الشمس تسير وهو قوله تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها) بأن المراد من جريها هو دورانها

على محورها . وأنها تجرى إلى استقرار يكون لها بعد ذلك عند ما يخرب عالم السموات والأرض بمجيء يوم القيامة ، فإنها حينئذ تقف عن تلك الدورة ، وأن سبحها فى فلكها عبارة عن دورانها على محورها فى الحيز الذى هو فلكها - كما تقدم أن الفلك هو الحيز فى تفسير بعض علمائنا . وأما الأرض فإنه وإن لم يرد تصريح فى النصوص الشرعية بحركتها أو بسكونها ولكن نسبة الجرى والسبح فى الفلك إلى الشمس ، وظواهر استعمالات الشرع وأهل العصور الإسلامية : تدل بالظاهر على أنها ساكنة والحركة اليومية التى نراها إنما هى للشمس والكواكب لا للأرض ، فإذا أقام لنا هؤلاء الفلكيون الدليل العقلى القاطع على أن تلك الحركة اليومية للأرض تدور على محورها يمكننا أن نصرف النص الذى ظاهره سير الشمس على ظاهره — كما تقدم كما يمكننا أن نقول : إن استعمالات الشرع فيما يدل ظاهره على أن الدورة اليومية للشمس لا للأرض ، وجرى على ذلك استعمالات العصور الإسلامية ، إنما كان ذلك جريا على الظاهر المشاهد للعامة ومجاراة لاستعمال الأمم وما ألفوه فى نظرهم ، وتكون هذه المسألة من جملة المسائل التى لم يؤذن للرسل بشرحها للعموم ، لأن كشف حقيقتها ليس من مقاصد الشرائع لما تقدم أن مقاصد الشرائع إنما هو بيان التوحيد ، والعبادات ، ونظام المعاش ، وأيضا بيان تلك المسألة ربما قد يعجز عن فهمه كثير من العامة ، بل ربما يكون فيه للعامة اضطراب واختلال لا سيما الضعفاء منهم الذين يجدون ذلك مخالفا لمشاهدتهم ، ولسنا نقول : إن فهم هذه المسألة

يصعب على أجلاء الصحابة رضى الله تعالى عنهم الذين حازوا من المعارف النبوية ما يؤهلهم لفهم أعظم المسائل وأدقها ، بل نقول : إن فهمها يصعب على العامة لا سيما أهل البوادي ، ولينظر لو قيل للعرب فى الجاهلية : إن الأرض هى التى تدور والعالم على ظهرها ولا يسقطون عنها ولا ينفصل عنها ماء البحر ونحو ذلك ، وهم يشاهدون بأبصارهم أن الدائر حول الأرض إنما هو الشمس والكواكب ، ماذا يكون حالهم حينئذ وما كان يظهر فيهم من المخالفة والامتناع عن التصديق لهذا القول ؟ وانظر إلى ما استبعدوه من أمر البعث وأمثال ذلك ، ولكن الشرائع فى غنية عن بيان مثل مسألة الأرض ، إذ ليست من مقاصدها . وأما بيان البعث فهو من مقاصدها لما فيه من الترهيب والترغيب المصلحين للأمم فلذلك لم تترك بيانه وإن صعب فهمه على كثير ، بل ذكرته وأقامت الدلائل عليه ، والملخص أن الشرع جرى فى استعماله على ظاهر الحال ، ويسمى ذلك فى اصطلاح اللغة تجوزاً ، ولم يظهر الحقيقة للشعب لما قدمنا ، وهكذا نرى الآن من يعتقدون دورة الأرض يجرون فى استعمالاتهم على ما هو ظاهر الحال ويقولون : طلعت الشمس وغربت ، ولم نسمع أحداً منهم يقول : قابلنا الشمس أو استترنا عنها ، وكل هذا جائز فى الاستعمالات اللغوية لقيام الصورة الظاهرية بالمشاهدة .

ولنعلم أن جميع ما قررناه هنا — وإن كان سائغا لنا ولا ضير فيه — إلا أننا لا نقول به إلا بعد إقامة الدليل العقلى القاطع على صحة قول هؤلاء الفلكيين ، وإلا فنحن متمسكون بالظواهر ، لا نفارقها

ولا نلتفت إلى أقوالهم وإجماعهم ؛ إذ ليسوا معصومين من الغلط كما لم يعصم أسلافهم ، والله تعالى أعلم .

وأما إنكار هؤلاء الفلكيين لوجود السموات السبع . والعرش والكرسى ، والقلم ، واللوح ، والجنة ، والنار ، فهذا ليس لديهم دليل عليه ، إلا أنهم ما وجدوا هذه الأشياء ولا رأوها بنظاراتهم المجسمة ، ونقول : إن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود فى نفس الأمر ، وهذا مسلم عند جميع العقلاء ، فإنكارهم لا يعبأ به ، ثم إننا نحن وإياهم متفقون على وجود الفضاء الذى لا يتناهى فما المانع من أن الله تعالى خلق تلك الأجسام وراء عالم الكواكب قائمة فى الفضاء ، وتلك الأجسام تكون بعيدة عنا بمسافات شاسعة لا تدركها نظاراتهم ، أو أنها وإن أدركت بها السماء الدنيا التى هى أول تلك الأجسام فربما تكون تلك السماء ملونة بلون يوجب عدم تحقق جسميتها بالنظارات ، فهم لم يروا بنظاراتهم ولم يتحققوا إلا جسمية الكواكب فأنكروا تلك الأجسام وهى موجودة فى الفضاء الواسع الشاسع ، وحيث إن ذلك جائز محتمل داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى بأن يخلق سبحانه تلك الأجسام ويقيمها فى ذلك الفضاء كما أقام الكواكب ، وقد أخبر بوجودها الصادق عليه السلام ، فنحن نؤمن بوجودها وليس لنا تأويل نصوصها الواردة فيها ، إذ لا داعى لذلك لعدم قيام دليل قاطع يناقض وجودها ، ومجرد إنكار أولئك القوم ليس دليلا ظنيا فضلا عن أن يكون دليلا يقينيا ، والله تعالى أعلم .

وأما إنكارهم كون الأرضين سبعاً فهذا أيضاً لا دليل لهم عليه ،

فغاية ما عندهم أن يقولوا : إننا لم ننظر غير الكواكب وهذه الأرض ونحن نقول : أولا إنه لم يتفق جميع علماء الإسلام الذين يعتمد على فهمهم للنصوص الشرعية على حمل النص الذى يدل على وجود سبع أرضين على ظاهره : من وجود سبع أرضين منفصلة مستقلة كل واحدة منها ، بل بعضهم قال : إن المراد بها أقاليم أرضنا السبعة وبعضهم قال : إن المراد بها طبقات أرضنا ، وثانياً إذا جرينا على ما نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أن كل واحدة منها منفصلة مستقلة مثل أرضنا ، وأن فى كل منها عالما كعالمنا فهذا شىء من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى الذى أوجد هذه الكواكب العظيمة التي يوجد بينها ما يزيد فى العظم عن أرضنا بمئات الألوف ، فما المانع أن يكون الله تعالى قد خلق ست أرضين غير أرضنا ، وتكون تلك الأرضون قائمة فى الفضاء كما يقول أولئك الفلكيون فى أرضنا وعدم رؤيتهم لها بنظاراتهم يمكن أن يكون بسبب أنها مظلمة السطح لا ترى ، كما أن القمر لا يرى عند المحاق ، ويمكن أنهم يرونها بين الكواكب ويحسبونها من جملتها ولا غرابة فى ذلك على أصولهم فكثير منهم من يزعم أن فى الكواكب سكانا ، ويستدلون على ذلك بأدلة ظنية تعلم من الاطلاع على كتبهم ، فحيث قد تبين أن وجود سبع أرضين لا مانع منه ، وقد أخبر به الصادق ، فنؤمن بوجودها ولا نلتفت إلى كلام هؤلاء الفلكيين الذين لا سند لهم فى إنكارها ، ويسوغ لنا تفسيرها بكل من التفاسير المتقدمة حتى على قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مع توجيهه بما قدمناه ، والله تعالى أعلم .

وقد بقى نص فى القرآن الشريف ترد على ظاهره الشبهة على

رأى الفلكيين المتقدمين والمتأخرين ، وهو قوله تعالى فى قصة ذى القرنين (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) فإن ظاهره أن الشمس تغرب فى عين من عيون الأرض وكان يجب علينا الإيمان بمعناه الظاهر ، لكن قد قام الدليل العقلى القاطع من لدن المتقدمين على أن الشمس أكبر من الأرض بكثير ودخول الجسم الكبير فى الصغير مع البقاء على مقدارهما من المحال ، وقد قام الدليل القاطع أيضاً على أن الشمس لا تغرب فى نفس الأرض وعلى هذا فقد صرف علماء الإسلام هذا النص عن ظاهره إلى غير ما يتبادر منه ، فقالوا : يحتمل ـ والله أعلم بمراده ـ أنه تعالى أراد أن ذا القرنين لما بلغ ذلك المكان من بلاد المغرب وجد الشمس بحسب رؤية الرائى تغرب فى عين حمئة ؛ لأن الناظر إلى الشمس فى سواحل البلاد الغربية يتخيل أن الشمس تغرب فى بحرها الغربى المحيط بها ، وذلك البحر كثير الحمأة السوداء والظلمة ، وذو سخونة وليس مراده أنها تغرب فى عين بالفعل ، ولذلك قال : (وجدها تغرب) ولم يقل فإذا هى تغرب مثلاً من العبارات التى تفيد حكاية واقع الأمر نصاً ، وهكذا يقول الرجل منا . إنى من المكان الفلانى وجدت الشمس تغرب فى البحر ، أو خلف الجبل ، أو فى الوادى ، والحال أن اعتقاده أنها لم تغرب فى واحد منها وإنما حكى صورة رؤيته ، ويؤخذ هذا التأويل من الرازى ، والجلالين ، والكواشى كما نقله فى (عجائب المخلوقات) قال الرازى : وما قاله أهل الأخبار من أن الشمس حقيقة تغرب فى العين كلام على خلاف اليقين ؛ وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة ، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل والله تعالى أعلم .

الفصل الثانى

فى رَدِّ الشبه عن النصوص الواردة

فى شئون الملائكة والجنّ

قد تقدَّم لنا فى الباب الثانى وجوبَ الإيمانِ بالملائكة ، والآن نقول : إنه قد وردت نصوصُ الشريعة متواترة أو مشهورة ، وأحاديث آحادية لكن لكثرتها ، وتعددِ طرقها تبلغ ما يستفاد منها درجة التواتر يدل جميع ذلك على أنّ الله تعالى خلق أجساما لطيفة نورانية تُسمّى ملائكة ، قادرةً على التشكيل بأىّ شكل أرادت ، وأنها تقطع المسافات التى بين السموات والأرض فى مدة قصيرة جداً ، وأنها تمرّ أمامنا ولا نراها ، وأنها تفعل أفعالا عظيمة تعجز عنها قوى البشر ، وأنها موكلة بحوادث هذا الكون : كنزول الأمطار ، وتدبير عالم الحيوان والنبات ، وغيرِ ذلك ، وأنه تعالى خلق أجساماً أخرى تُسمّى جناً تشابه الملائكة المذكورين فى بعضِ خواصِها : من نحو الاقتدار على التشكيل والاحتجابِ عن الأبصار والاقتدار على أعمالٍ عظيمةٍ ، ولكنها تخالفهم بأنها ليست نورانية مثلهم ، وأنها مُكلَّفة كالبشر ، فمنهم المؤمن الطائع والعاصى ، والكافر

وقد وَردت شبه على وجودِ الملائكةِ والجنّ وشئونهم : من نحو الاقتدارِ على التشكيلِ ، والأعمالِ الشاقة ، مع أنهم أجسام لطيفة ، وغيرِ ذلك من بعضِ الفلاسفةِ المتقدّمين وتبعهم المتاخرون .

ونقول فى بيان رَدّ تلك الشبهة ، وإظهارِ أنها أوهام لا تقوم لدى

الإيمانِ بعظمة قدرةِ الله تعالى على إيجادِ الملائكةِ والجن فى تلك الشئون والأحوال :

اعلم أنه من الممكنِ الجائزِ عقلاً أنّ الله تعالى عظيم القدرة واسع العلم ، قد خلق الملائكة من مادة لطيفة كمادة الهواء أو الأثير الذى يقول به المتأخرون من أنه مادة لطيفة جداً مالئة الكون لاترى ، وقد كونهم سبحانه من تلك المادةِ ، وجمع أجزاءهم بكيفيةٍ صالحة لتلك الخواصّ والشئون التى ذكرناها لهم : كما كوّن سبحانه الحيوان من العناصر الجمادية بكيفيةٍ أكسبته قبول الحياة ، وجمع قواها من الإدراكِ والحركة وغيرِ ذلك بعد أن لم يكن للعناصر شيء من ذلك ، ويحتمل حينئذ أنّ عدم رؤيتنا إياهم لشفافتهم ولطافتهم كالهواء والأثيرِ ، على أنّ الأمر ظاهر جداً على ما ثبت لدينا معشر المسلمين من أنّ الرؤية بمحض خلق الله تعالى ، فمن الممكن أنّ الله تعالى لا يخلق رؤيتنا لهم عند مرورهم أمامنا ، ثم أنّ اقتدارهم على التشكل مع أنه جائز عقلاً داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ويمكن توجيهه وبيان كيفيته تقريباً للعقول بإمكان أنّ الله تعالى كوّن تلك الأجسام على كيفيةٍ يقتدرون بها على تناول كمية من الهواءِ أو الأثير أو نظير ذلك ، وتكثيفها وتكوينها على الصورةِ التى يريدونها ثم يلبسونها كما يلبس الثوب فيظهرون للأبصار بتلك الصورِ ، وفى الأعمال الكيماوية التى أقدر الله تعالى البشر عليها من تحويلات الأجسام إلى بعضها كتحويل الكثيف لطيفاً ، واللطيف كثيفاً ما يقرب فهم ما قررناه إلى العقول ، وحيث إنّ تشكل تلك الأجسام كيفما كان هو مستند إلى عظمة قدرة الله تعالى الذى تدهش أعماله الأفكار فيما أعطاه للحيوان

والنبات من الخواص ، فلا غرابة فى ذلك ، وكل مؤمن بذلك الإله وبعظيم قدرته ، وواسع علمه لا يستبعد حصول ما ذكر للملائكة .

وأما أنهم يعملون أعمالا عظيمة تعجز عنها قوى البشر مع أنهم أجسام لطيفة ، فبعد النظر إلى أعمال الرياح التى تقلع الأشجار العظيمة ، وتهدم الأبنية الجسيمة ، وأعمال القوة الكهربائية التى تجر الأثقال التى يعجز عنها ألوف الرجال لا نجد فى نسبة تلك الأعمال للملائكة - مع أنهم أجسام لطيفة - شيئاً من الغرابة ، لاسيما وأن الذى يقدرهم على تلك الأعمال هو الله تعالى الذى لا يعد ذلك بالنسبة إلى عظيم قدرته شيئاً صعباً ، وإذا نظرنا إلى أن بعض الناس يكسر بقوة ذراعه الحديد ، وما هى قوة ذراعه إلا عمل أعصابه مع عضلاته التى تنتهى أخيراً إلى مخه اللطيف النحيف الذى هو مبدأ حركة الأعضاء ، على ما يقوله أولئك الفلاسفة ، والمخ للطافته لا يتحمل أذى مصادمة من جسم غريب ، بل صعود نقطة دم زائدة على القدر اللازم له قد تفسده وتعدم صاحبه الحياة ، ظهر لنا أن الله تعالى قادر على إعطاء اللطيف قوة لا توجد فى الصلب الكثيف ، سبحانه من قادر عليم .

وأما أن الملائكة يقطعون المسافات الشاسعة بين الأجسام السماوية وبينها وبين الأرض بمدة قصيرة جداً ، فنقول : لا مانع منه عقلا ، لأن سرعة الحركة ليست محصورة بحد يسير فلننظر إلى ما قاله أولئك الفلاسفة : من أن الجسم الساقط إلى الأرض فى أول ثانية من سقوطه تكون سرعته ستة عشر قدماً ، وإذا كان سقوطه إلى الشمس تكون سرعته فى تلك الثانية أربعمائة وخمسين قدماً . ثم

إنّ الجسم يسقط في أيّ عدد كان من الثواني بعد الثانية الأولى ما يساوي مقدار ما يسقط في الثانية الأولى مضروبا في مربع ذلك العدد من الثواني ، فبالتأمل في هذا الناموس يعلم ما تبلغه سرعة حركة الأجسام من العظمة التي يحتار فيها الفكر ، وكذلك عندهم في علم الهيئة أنّ نجم المشترى يجري ثلاثين ألف ميل في الساعة ، أي أسرع من كلة مدفع ثمانين مرّة فيجري تسعة أميال كلما تنفس الإنسان ، وسرعة أجزائه الاستوائية في دورانه على محوره أربعمائة وسبعة وستون ميلا كل دقيقة ، ففي الساعة يقطع كل جزء من تلك الأجزاء سبعة وعشرين ألف وتسعمائة وعشرين مرّة ، والمشترى أكبر من أرضنا بألف وأربعمائة مرّة على ما يقوله الفلكيون منهم ، فالذي جعل هذا الجسم الكثيف العظيم وكلّ جزء من أجزائه الاستوائية تقطع تلك المسافة الشاسعة في تلك المدة الجزئية لا يبعد على قدرته أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات بين السموات والأرض في مدة قليلة جدا وإن كانت هذه المسافات أكثر بكثير من المسافات التي يقطعها المشترى وأجزاؤه ، لكن النظر الصحيح في سير ذلك الكوكب يقنع العقل بأنّ قدرة الله الذي سيره ذلك السير صالحة لأعظم ما يكون من جنس هذا العمل لاسيما وناموس الأجسام الساقطة قد بيّن عظم سرعة حركة الأجسام له ، وإن قيل إنّ سير المشترى هو بواسطة الجاذبية على ما هو مفصل في كتب أولئك القوم ، وكذلك سرعة الأجسام الساقطة . قلنا وما هي تلك الجاذبية التي ينسبون إليها أعمالا عظيمة في الكائنات ؟ وهم يعجزون عن الإفصاح عن حقيقتها ، وعما هو الموجب لقيامها في

الأجسامِ ، وغاية ما يكون منهم أنهم يقولون بها لتعليل الحوادثِ التى حيرت عقولهم : من نحو النظام الشمسي أى دوران الكواكب حول الشمسِ وغيره ، وبعد تسليم ثبوتها نقول : من الذى أوجدها وجعلها خاصة الأجسامِ وأنشأ عنها تلك الحوادث العظيمةِ فى الكائناتِ ؟ أغير الإله الذى أبدع الخلق من العدم ، ووضعه على أتم نظام ، وأسمى حكم ؟ فإذا كان ذلك الإله قادراً على إيجادِ مثلِ هذه الجاذبيةِ ، وإحداثِ حركاتِ الأجسامِ السريعةِ عنها فلا يعجز أن يجعل الملَك يقطع تلك المسافات فى مدة وجيزة : إما بخاصةٍ وضعها فيه ، وإما بغير خاصةٍ ، فالكل جائز عقلاً وقدرته صالحة لكلا الأمرين ، وليعلم أن جميع ما قررناه فى حق الملائكة يقال مثله فى شأن الجن : من القدرِ على التشكل ، والأعمالِ العظيمةِ ، وقطعهم المسافات الطويلة فى برهة قليلة ، وعدم رؤيتنا لهم والاستدلال واحد لا يخفى على الفطن الذكى ، والله تعالى أعلم .

نقول : ومن هذا المقام تبين لك اندفاع الشبهة التى ترد على الإسراءِ والمعراج اللذين حصلا لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . والشبهةِ التى ترِد على انتقالِ عرش بلقيس من بلادِ اليمن إلى مجلس سليمان عليه السلام فى لمحة طرف . أما الإسراء والمعراج فقد ورد فى القرآن الشريف أن الله تعالى أسرى بسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى ليلةٍ واحدةٍ من المسجدِ الحرام فى مكة إلى المسجد الأقصى فى القدسِ ، وورد فى الأحاديثِ الصحيحةِ التى بلغت بكثرتها درجة القطع بثبوتها أن الله تعالى أصعده فى تلك الليلةِ إلى السموات العلى . ثم أعاده إلى مكة فى نفسِ تلك الليلةِ قبل أن يطلع الفجر . فيجب

علينا الإيمان بذلك حتى إن كثيراً من العلماء يذكرون الإسراء والمعراج فى جملة العقائد التى يجب الإيمان بها ، وإنما أخرنا ذكرهما إلى هنا لبيان دفع الشبهة عنهما فى مناسبة هذا المقام .

فنقول : حيث قد ظهر هنا أن سرعة الحركة للأجسام مهما بلغت القدر العظيم فهى من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فما المانع أن الله تعالى ينقل ذات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى ليلة واحدة من حرم مكة إلى حرم القدس ، ثم إلى السموات العلى ، ثم يعيده فى تلك الليلة إلى مكة ، فمن يؤمن بوجود الله تعالى ، ويتبصر فى أعماله فى هذه الأكوان ، ويعتقد أن سيدنا محمداً رسوله ، وقد أخبرنا بأنه قد حصل له ذلك الانتقال السريع فى تلك المسافات ، وهو صادق معصوم عن الكذب لا يتوقف بتصديق قصة الإسراء والمعراج ، ويؤمن بذلك من دون تردد ، ولا يجده إلا من الأمور الجائزة الداخلة تحت تصرف قدرة ذلك الإله العظيم . وأما من لم يكن مؤمناً بوجود الإله سبحانه وعظيم قدرته ، ولم يعتقد برسالة رسوله فهذا الصواب فى حقه أولاً أن يرشد إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله بواضح البرهان ، وبعد ذلك يسهل عليه تصديق نصوص الأحاديث والقرآن ، والله الموفق .

وأما قصة مجيء عرش بلقيس من بلاد اليمن إلى مجلس سليمان فى لمحة طرف ، فقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم ، وأنها جرت على يد من عنده علم من الكتاب ، فبعض المفسرين قال : إنه آصف بن برخيا وزير سيدنا سليمان عليه السلام ، فيكون مجيء

ذلك العرش كرامة أظهرها الله تعالى على يده ، لأنه من أولياء الله تعالى ؛ وبعضهم قال : إنه نفس سليمان عليه السلام فيكون ذلك معجزة أظهرها الله تعالى على يديه ؛ إذ هى أمر خارق للعادة ، ومن تأمل فى هذا المقام وظهر لديه أن سرعة حركة الأجسام مهما بلغت فهى من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فلا يصعب عليه الإيمان بهذه القصة ، والله على كل شىء قدير .

الفصل الثالث

فى رد الشبه عن بعض النصوص الشرعية الواردة فى الأمور الجوية كالمطر ونحوه

اعلم أن الآيات الواردة فى القرآن الشريف فى شأن المطر هى على قسمين : منها ما ظاهره أن المطر ينزل من السماء ، ومنها ما ظاهره أنه ينزل من السحاب ، ثم إن السماء تطلق فى اللغة العربية التى جاءت هذه الشريعة الإسلامية بها على عدة معان كما فى قواميس تلك اللغة ، منها السماء التى هى مسكن الملائكة ، ومنها سقف كل شىء وكل بيت ، ومنها كل ما علا الشىء فهو سماؤه ، ومنها السحاب ، ومنها المطر ، وبناء على ما تقدم من وجوب اعتمادنا على المعنى الظاهر المتبادر من النص ما لم يقم دليل قاطع على خلافه ، علينا أن نعتقد المعنى الظاهر المتبادر من لفظ السماء المذكور فى إنزال المطر ، وهو مسكن الملائكة كما هو المراد فى كثير من الاستعمالات الشرعية ونوفق بين النصوص التى ظاهرها نزول المطر من السماء ، والتى ظاهرها نزوله من السحاب ، بأن الله تعالى ينزله من السماء على

البخارات المجتمعة فى الجو المسماة بالسحاب . ثم ينزله منها إلى الأرض ، فتارة تذكر النصوص محل نزوله الأول ، وتارة تذكر محل نزوله الثانى ، والله أصدق القائلين ، ونقل عن قطب العارفين سيدنا السيد أحمد الرفاعى قدس سره العزيز فى بيان هذا التوفيق أن المطر قسمان : مطر ينزل من السماء وهو الذى يكون بسببه خروج النبات ، ومطر يتكون من بخارات الأرض وبخارها ويتصاعد إلى الجو ثم ينحدر من السحاب وهذا لا يكون به الإنبات وإن كان له حكم ومنافع الله أعلم بها ، ثم إذا ثبت بالدليل العقلى القاطع ما يقوله الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون : من أن المطر ليس إلا من بخارات الأرض ، وبخارها يتصاعد إلى الجو بسبب الحرارة ، ثم ينعقد بسبب البرد سحاباً ، ثم يتحلل مطراً ، وتحقق ذلك بدون ريب ساغ لنا حينئذ على موجب القاعدة المتقدمة أن نؤول النصوص التى يتبادر منها أن المطر ينزل من السماء التى هى مسكن الملائكة بأن المراد بالسماء فى هذه النصوص هى ما علانا وصار سقفاً لنا وهو السحاب كما هو أحد معانيها اللغوية ، وقد ذكر هذا التأويل الإمام الرازى فى تفسيره سورة البقرة ، وأشار إليه الشيخ الشرنبلالى فى شرح « مراقى الفلاح » ، أو أن يقال إنه لما كان نزول المطر بأسباب سماوية من جملتها حرارة الشمس المرسلة أشعتها إلينا من جهة السماء فتثير وتصعد الأجزاء المائية من أعماق الأرض ومن البحار والأنهار إلى جو الهواء فينعقد سحابا فيمطر كان الإنزال من السحاب حقيقة ومن السماء مجازاً باعتبار السببية ، والله مسبب الأسباب وقد ذكر هذا التأويل الشيخ

إسماعيل حقى فى تفسيره سورة « النبأ » ، وعلى كلٍّ فقد اندفعت الشبهة ؛ ووافقت النصوص الشرعية حكمَ العقل ، والله تعالى أعلم .

وإن قيل : ما حقيقة الرعد ، والبرق والصاعقة ؟ فإن الفلاسفة المتأخرين يقولون : إنها ناشئة عن عمل القوة الكهربائية المتكونة فى السحاب ، وأقاموا على ذلك فى كتبهم الدلائل من نوع قياس الغائب على الشاهد ؛ قلنا : اختلف علماء الإسلام المتقدمون فى ذلك ، فقال بعضهم : الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث شاء الله تعالى ، والصوت المسموع صوته ، ويسمى رعداً أيضاً وبيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب ، والبرق ما ينقدح من تلك المخاريق ، وإذا اشتد غضبه طارت من فمه نار هى الصاعقة ، واستند أصحاب هذا القول إلى حديث آحادىّ رُوِى فى ذلك ، وقال بعضهم : إن الرعد خلق من خلق الله تعالى ليس بملك . ورُوِى هذا عن الحسن ، أى البصرى . وقال بعضهم : إن الرعد ، والبرق ، والصاعقة تتولد من اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها فينشأ هذا الصوت المسمى رعداً ، وينقدح ذلك اللمع المسمى برقا ، والصاعقة قصفة رعد هائلة معها نار لا تأتى على شىء إلا أتت عليه بالهلاك ، وعبّر البيضاوى عن هذا القول بأنه المشهور ، ولعل مراده المشهور بين علماء المعقول .

إذا تقرر هذا فاعلم أن اختلاف العلماء فى هذه الأشياء دليل على أن الحديث الذى استند إليه أصحاب القول الأول لم يصح عند الفريق الثانى الذين خالفوهم ، وإلا لما قالوا بغير مضمونه فيكون اعتقاد مضمون القول الأول ليس واجباً علينا كبقية العقائد الإسلامية ؛ إذ ليس

النص الذى استند إليه من النصوص الثابت ورودها عن الرسول قطعياً، كالمتواتر، والمشهور، لكن الصواب عدم مخالفة الحديث وإن كان آحادياً، وإذا لم يقم دليل قاطع على ثبوت خلافه لجميع ما ذكر فيه هو من الجائز العقلى الداخل تحت تصرف قدرة الله تعالى، فما المانع أن يكون الله تعالى عظيم القدرة قد خلق ذلك الملك ووكله بتدبير أمر السحاب والأمطار؛ وينشأ عنه تلك الحوادث من الصوت العظيم، والبرق، والصاعقة. وأما إذا ثبت بالدليل العقلى القاطع أن تلك الحوادث الثلاث إنما هى من فعل الكهرباء، فلنا حينئذ تأويل نص ذلك الحديث الآحادى؛ فنقول: لا مانع أن الله تعالى قد خلق ملكاً ووكله فى تدبير شئون الأمطار، وتلك الحوادث الناشئة عن القوة الكهربائية التى لابد فيها من حكم بأمرة إنما مبدؤها تدبير ذلك الملك وتصرفه فى السحاب فأراد بالحديث إفادة أن شئون المطر وتلك الحوادث مرجعها ذلك الملك مع تمثيل وتصوير عظمته، فعبر عن الرعد بصوته، والبرق بلمعان مخاريقه، والصاعقة بشرارة فمه، والمراد من جميع ذلك التمثيل والتصوير، وهذا الأسلوب مستعمل فى اللغة العربية يفهم أصحابها ما هو المقصود منه، وورد نظيره فى استعمالات الشرع الشريف، فما ورد فى كلام أهل اللغة العربية منه قول بعضهم يمدح رجلا:

إن السماحة والمروءة والندى ٭ فى قبة ضربت على ابن الحشرج

فإنه من المعلوم أن السماحة والمروءة والندى هى معان لا يمكن أن توضع فى قبة مع الممدوح، وإنما المراد تمثيل وتصوير ملازمة الممدوح لتلك الصفات الكريمة حتى كأنما ضربت عليها وعليه

قبة ، ومما ورد منه فى استعمال الشرع الشريف قوله تعالى (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) فإنه قد يؤول بأن المراد منه تمثيل وتصوير عظمة الله تعالى وقدرته وعظمة سلطانه ، وإلا فهو سبحانه ليس مشابها للحوادث ، ويستحيل ملاصقته لها بأن يقبض على الأرض ويأخذ السموات بيمينه سبحانه ، وبهذا يتضح التوفيق بين ذلك الحديث الآحادى وبين مافرض ثبوته بالدليل القاطع من كلام الفلاسفة المتأخرين والله أعلم

فإن قيل قد ورد فى القرآن الشريف ما يفيد أن الله تعالى جعل الكواكب زينة السماء الدنيا ، وجعلها حفظاً من الشياطين ، ورجوما لهم ، لأنهم يصعدون إلى قرب السماء لاستراق السمع من الملائكة ، ومن المعلوم أن الفلكيين يقولون بكبر كثير من الكواكب حتى إن منها ما هو أكبر من الأرض بمرات ، وورد أيضاً فى بعض الآثار ما يدل على كبر البعض منها ولو رجمت الشياطين بهذه الكواكب الكبيرة لسقطت على الأرض وأضرتها ، ولكان يظهر النقص فى الكواكب المرئية لنا على طول الزمان .

قلنا : ليس المراد من النص القرآنى أن نفس الكواكب الكبيرة تكون رجوما حتى يلزم ذلك ، بل المراد كما قال الإمام الرازى فى تفسير سورة (الصافات) وتفسير سورة (الملك) أن تنفصل شعل من الكواكب ترجم بها الشياطين ، وهى الشهب التى نراها منقضة من جهة السماء ، أو أن الكواكب قسمان : قسم منها الكبير الثابت الذى لا يتغير ولا ينقص ، وقسم منها الصغير الذى ينقص ويكون رجما للشياطين ، وهى هذه الشهب التى نراها منقضة .

فان : قيل إنّ الفلكيين المتأخرين يقولون : إنّ الشهب أجسام صغيرة سابحة فى الفضاء تنجذب أحياناً إلى الأرض عند قربها منها وتنقض ملتهبة من سرعة الحركة . قلنا : لم يقل النص القرآنى إنّ كل شهاب فهو رجم للشياطين بل مفاده أن الكواكب رجوم للشياطين فى الجملة فما المانع أن الله تعالى خلق تلك الأجسام وأقامها فى الفضاء وهى من جملة الكواكب ولكنها صغيرة ، فتارة تنقض إلى جهة الأرض بسبب جذب الأرض لها عند قربها منها ، وتارة يرسلها الله شهباً على الشياطين المسترقين للسمع ، فقد ظهر مصداق النص القرآنى أن الله تعالى جعل النجوم زينة ورجوما فالزينة بكبارها والرجوم ببعض صغارها ، فالفلكيون ما علموا غير ما دلتهم عليه أرصادهم ، ونحن قد علمنا أن من الكواكب ما يكون رجوما للشياطين وهى بعض تلك الأجسام الصغيرة ، وثبت عندنا ذلك بأخبار القرآن الشريف الصادق ولا إشكال فى ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فان قيل : إذا ثبت ما يقوله الفلكيون من أن الأرض كرة قائمة فى الفضاء ليست مركوزة على شىء ، فما تقولون فى الأثر المروى عن بعض الصحابة أنه سئل سيدنا عيسى عليه السلام عن الأرض فقال : إنها على قرن ثور والثور على صخرة والصخرة على ظهر الحوت والحوت فى بحر والبحر على الريح وتحت الريح ظلمة ؟ قلنا : هذا الأثر لو فرض نقله حديثاً ليس آية قرآنية ولا حديثاً متواتراً ولا مشهوراً حتى يجب الإيمان به كبقية العقائد الإسلامية لعدم اليقين بثبوته ، وعلى فرض ثبوته عن سيدنا عيسى عليه السلام فيمكن تأويله بكونه من ضرب الأمثال ، وكثيراً ما ترد الرموز

وضرب الأمثال فى كلام سيدنا عيسى عليه السلام كما يعلم ذلك من تتبع المنقول عنه ، والله أعلم .

الفصل الرابع

فى رد شبه شتى عن نصوص شرعية

اعلم أنه قد ورد فى القرآن الشريف ما يفيد أن الله تعالى خلق آدم أبا البشر عليه السلام ابتداء من طين بدون أب ولا أم ، وورد أنه سبحانه خلق زوجته حواء منه ، وقال بعض المفسرين : إن المعنى أنه خلقها من جنسه ونوعه كما قال تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) وقال أكثر المفسرين : إنه خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى واستندوا فى ذلك إلى حديث آحادى ورد فى ذلك ، وورد فى القرآن أيضاً أن الله تعالى خلق سيدنا عيسى عليه السلام من السيدة مريم رضى الله تعالى عنها من دون أب ، قال علماء الإسلام : إن فى خلق هؤلاء المذكورين بهذه الطرق مع خلق بقية البشر على الطريق المعتاد إشارة من الحق تعالى للعباد على تمام قدرته بخلق الإنسان على أى كيفية أراد ، فخلق آدم بدون ذكر وأنثى ، وخلق حواء من ذكر ، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى ، وخلق بقية البشر ذكوراً وإناثاً من ذكر وأنثى ، ومن يؤمن بوجود الله تعالى وبكمال قدرته ويتصور ما أبدعه من الحيوانات والنباتات من التراب لا يصعب عليه الإيمان بخلق آدم ، وحواء ، وعيسى بالكيفيات المذكورة ، إذ لا دليل على استحالة شىء من ذلك ، وقد أخبر به الصادق ، وما يقوله بعض المتأخرين من الفلاسفة فى حق الإنسان وبقية الحيوانات : من

أنها تولدت من عناصر الأرض ثم اشتق بعضها من بعض بتفاصيل مستطيلة ، ويسمون قولهم هذا مذهب النشوء فهو قول مبنى على الظنون والأوهام ، لا مستند له فى باب اليقين ، كما أوضحت ذلك فى (الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الإسلامية) فلينظر هناك ، فلا داعى لنا إلى تأويل النص الوارد فى خلق آدم من تراب كما يعلم من القاعدة التى تقدم تقريرها من أنه لا يسوغ لنا تأويل النص الشرعى إلا إذا قام الدليل القاطع على ما يناقض المعنى المتبادر منه ، وعلى فرض قيام الدليل القاطع على ما يقوله هؤلاء الفلاسفة فيمكن تأويل هذا النص فى خلق آدم وحواء بتأويلات مناسبة كما بينته فى (الرسالة الحميدية) أيضاً فارجع إليه : وأما من لم يكن مؤمنا بالله تعالى وعظيم قدرته ، فهذا الصواب فى حقه كما تقدم مراراً إقامة الشواهد له حتى يصير مؤمناً بالله تعالى ، وبعد ذلك يتضح له صدق تلك النصوص ، والله أعلم .

كذلك قد ورد فى القرآن الشريف فى قصة أهل الكهف ما يفيد أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين ، وجاء شرح قصتهم فى الأحاديث الشريفة أنهم أشخاص مؤمنون على دين سيدنا عيسى الصحيح ، خافوا من إجبار ملكهم لهم على الكفر وعبادة الأوثان فاختبأوا فى ذلك الكهف ، وأرسل الله عليهم النوم وحفظ حياتهم تلك المدة ، ثم بعد يقظتهم عادوا فناموا وسد عليهم القوم الذين اطلعوا عليهم باب الكهف ، فهذا الحال من الجائزات العقلية إذ لا مانع من أن الله تعالى يحفظ حياة النائم سنين عديدة ، فإن الغذاء ما هو إلا سبب عادى فى حفظ الحياة

والله تعالى قادر على حفظها بدون الغذاء ، وقد يوجد فى الحيوانات لاسيما من نوع الحيات ما ينام تحت التراب مدة الشتاء لا يأكل ولا يشرب ويحفظ الله تعالى عليه حياته تلك المدة ، وكذلك قال بعض الباحثين عن طبقات الأرض : إن بعض الحيوانات الصغيرة قد تجمد تحت التراب ألوفاً من السنين وهى محفوظة الحياة واستشهدوا على ذلك ببعض ما اكتشفوه ، ولا يلزم من وجود أهل الكهف الآن أن يطلع عليهم الباحثون عن الآثار القديمة ، فكم من البقاع لم يصلوا إليها ولم تطأها أقدامهم ولم يرد حديث صحيح بتعين مكانهم ، والله تعالى أعلم .

وكذلك قد ورد فى نصوص القرآن الشريف ، وفى أحاديث كثيرة ما يدل على أن الرؤيا المنامية قد تدل على أمور تحدث فى اليقظة : إما صراحة ، وإما بنوع إشارة تحتاج للتفسير . قال العلماء : إن الرؤيا المنامية هى تصورات فكرية تحدث فى ذهن النائم على أنواع : منها ما سببه بخارات الطعام ، ومنها ما سببه تفكير الإنسان فى أشياء حالة اليقظة فيراها أو يرى ما يناسبها فى حالة النوم ، ومنها ما سببه من الشيطان لأجل غرور الناس ، أو إدخال الحزن عليه ، أو نحو ذلك من مقاصده الخبيثة ، ومنها ما يكون من جانب الله تعالى تبشيراً للعباد أو تحذيراً ، أو غير ذلك إما صراحة ، وإما إشارة ، وهذا القسم بنوعيه هو الذى ورد فى الشريعة أنه جزء من الوحى ، وكل هذه الأقسام جائزة لا تستلزم محالا عقلياً ، وللقسم الأخير شواهد كثيرة تنقل فى التواريخ القديمة إلى هذا الزمان ، ونظن أنه قل أن يخلو شخص من حصول شيء له من ذلك فى مدة

عمره ، ولكن يوجد فى فلاسفة هذا العصر من ينكر هذا النوع الأخير من الرؤيا وينكر دلالتها على شىء فى اليقظة بدون دليل منه على استحالته أو عدم وجوده ، وإذا نقل إليه بعض الشواهد التى حدثت لبعض الناس من هذا النوع يؤول ذلك الشاهد بتأويلات واهية سخيفة . فالذى نعتقده أن دلالة هذا النوع من الرؤيا على أمور تحدث فى اليقظة هو أمر جائز عقلاً وقد أخبرت بوقوعه نصوص الشريعة فنؤمن به ونصدق .

كذلك قد ورد فى بعض النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ما يفيد أن للسحر حقيقة وآثاراً فى الخارج . قال العلماء : إن من السحر ما يوجد له حقيقة وآثار فى الخارج مثل قلب بعض صور الحيوان إلى صورة أخرى ، وقتل الحيوان والاضرار ببعض الأجساد وذلك ناشىء إما عن خاصية فى نفس الساحر خصه الله تعالى بها أو عن استعمال الساحر بعض الرقى والعزائم ، ولكن كل ما يحدث من آثار ذلك فى الخارج فهو بمحض خلق الله تعالى ، وتلك الخاصية فى الساحر واستعماله بعض الرقى والعزائم ما هو إلا من الأسباب العادية التى جرت عادة الله تعالى فى إحداث مسبباتها عندها ، وليس الساحر خالقاً لشىء من تلك الآثار ، ومن السحر ما لا أثر له فى الخارج حقيقة وإنما يحدث عنه فى نظر الرائى وفكره صور وهمية متخيلة يظن الرائى أن لها وجوداً فى الخارج والحال ليس كذلك ، وتلك الصور الخيالية تحدث إما بواسطة أعمال كيماوية ، أو باستعمال النواميس الطبيعية كنواميس النور ، فيرى الإنسان أثراً فى الخارج لا حقيقة له فيه ، وإما بوسائط

أخرى كسرعة العمل وغير ذلك ، قال أهل السنة والجماعة : لا مانع أن الله تعالى يوجد فى بعض النفوس خاصة التأثير بالأجسام وقلب صورها وإحداث الإضرار ونحو ذلك ، أو يحدث ذلك عند استعمال بعض الرقى والعزائم ، ولكن كل ذلك بخلق الله تعالى وجعله تلك الخاصة والرقى والعزائم أسبابا عادية تحدث عندها تلك الآثار كما لا مانع من خلق الله تعالى تلك الصور الخيالية المتوهمة التى لا حقيقة لها فى الخارج عند استعمال بعض النواميس التى تنشأ تلك الصور عنها. وإن قيل : لو جوزنا وقوع السحر يلزم اشتباه الساحر بالرسول الذى يأتى بالمعجزة . قلنا : ان الرسول يدعى الرسالة من عند الله تعالى ، ويصدقه الله تعالى بإظهار المعجزة على يديه . والساحر لا يدعى الرسالة وإن أراد ادعاءها فمن حكمة الله تعالى أن لا يظهر الأمر الخارق للعادة على يديه ، أو أنه ان ادعى الرسالة كان من حكمة الله تعالى أن يطلع بعض من يدعي بينهم على حقيقة أعماله السحرية فلا يلتبس عليهم الحال بالمعجزة كما قال الرازى فى حكمة تعليم الملكين الناس السحر ، وقد نقلناه فيما تقدم ، فبهذا يكون الفارق بين المعجزة والسحر . فإن قيل : إن الفلاسفة المتأخرين أنكروا وجود السحر من النوع الأول ، وهو أن يكون على يد الساحر ظهور بعض الحقائق من قلب الصور والإضرار بالغير بواسطة خاصية بنفسه أو استعمال بعض الرقى والعزائم ، واحتجوا على ذلك بأنه لا يظهر فى العقل ارتباط بين تلك الوسائط وظهور تلك الحقائق فى الخارج ، وبأن فى جميع ما اكتشفناه من حقيقة حال السحرة فى هذا الزمان أن جميع ما يظهر على أيديهم هى صور

وخيالات لا حقيقة لها فى الخارج ، وهى تحدث على أيديهم باستعمال بعض النواميس أو بواسطة خفة اليد وسرعة العمل ، وكثير من السحرة من أقر بأن ما يظهره للعيان ما هو إلا صورة خيالية لا حقيقة لها . قلنا إنا معشر أهل السنة نقول : إن عدم ظهور ارتباط بين تلك الوسائط ، وهى خاصية النفس واستعمال الرقى والعزائم وبين ظهور تلك الحقائق فى الخارج لا يلزم منه عدم وجوده فى نفس الأمر ، فربما يكون ذلك الارتباط موجوداً وهم لم يطلعوا عليه لاسيما وأمر السحر شىء خفى ووجود السحرة قليل وفى أزمنة متباعدة ، وهذا المغناطيس لا شك أنه يجذب الحديد ومع ذلك لم يطلع هؤلاء القوم على حقيقة السبب الذى به توجد هذه الخاصية . ولم كان يجذب الحديد دون غيره ؟ غاية ما يقولونه : إن تركيب أجزاء المغناطيس يقتضى ذلك ، وهذا ادعاء لسبب مجمل غير واضح ولا مقنع للعقل فيه ، على أننا نقول : أن وجود تلك الحقائق على يد الساحر بمحض خلق الله تعالى وهذا لا مانع منه سواء كان هناك سبب موجب أو لم يكن ، وأما قولهم : إننا فى جميع ما اكتشفناه من حقيقة حال السحرة فى هذا الزمان قد اتضح لدينا أن جميع ما يظهر على أيديهم منه صور وخيالات لا حقيقة لها فى الخارج : فنقول أولا : لا نسلم أنهم اطلعوا على أحوال كل ساحر فى هذا الزمان ، وثانياً لا مانع أن يكون النوع الأول من السحر قد فقد من العالم كما فقدت عدة علوم ، وبقى النوع الثانى فقط الذى اطلعوا عليه ، ونحن لا نقول بوجود النوع الأول دائماً حتى فى هذا الزمان بل فى نفس الأمر وهو عزيز الوجود

ولا يوجد صاحبه إلّا فى أزمنة متطاولة ، فالملخص أننا معشر أهل السنة نقول بوجود السحر لاسيما فى الأزمنة الغابرة كما جاءت بذلك النصوص ، وبأنّ آثاره محض خلق الله تعالى وإن لم نطلع على وجود شيء منه فى هذا الزمان ، والله تعالى أعلم .

كذلك قد ورد فى بعض الأحاديث الآحادية أنّ لبعض الأعين تأثيراً فى سقم بعض الأجسام وإضرارها ، وحمل عليه بعض المفسّرين تفسير بعض الآيات ، وقد أنكر هذا بعض الفلاسفة المتأخّرين والمتقدّمين ، قالوا : كيف يعقل أنّ العين تعمل من بُعد وتؤثر فى الأجسام بالأسقام والأضرار ، ونحن نقول : إنّ ذلك من الجائزات العقلية ، وحقيقة ذلك التأثير بخلق الله تعالى ، والعين سبب عادىّ ، وإذا أريد بيان ذلك التأثير عقلا ، فنقول : إنّ الناس مختلفون فى خواصّهم كما يكون الاختلاف بين أصناف الحيوانات فما المانع من أن يكون فى الناس ذو طبيعة فى نفسه ذات سمّ وضرر ؟ فإذا نظر شيئاً بعينه وأعجبه وتوجه بنفسه إليه انفصل من عينه فى الهواء مادة سامّة إذا وصلت إلى المرئى أضرّت به ، وأى مانع من انفصال مادة من العين عند الانفعالات النفسية كما تنفصل منها الدموع عند ذلك ؟ وقد قال بعض المتكلمين على خواصّ الحيوانات : إنّ من الأفاعى ما ينظر إلى الإنسان فيموت بنظره ، وما يصوّت فيموت السامع بصوته ، وإذا صحّ هذا فتلك الأفعى لم يكن قتلها من بُعد إلّا بواسطة سمّ ينفصل عنها ويصل إلى الإنسان ، ومن نظر إلى المغناطيس وتأثيره بالحديد من بعد لا يستغرب تأثير العين فى الأجسام من بُعد ، وهذا الذى ذكره

من تأثير العينِ فى سَقَم الأجسام وإضرارها هو الذى ثبت فى الأحاديث ، وأمّا ما يُنقل من أنّ العين تهدِم المبانى العظيمة وتشق الجبال الكبيرة وأمثال ذلك فهو شىء منقول فى القصص والأخبار الشائعين بين الناسِ ، وإذا لم يصح فى نقولِ الشريعةِ الصحيحة فلا يُعتمد عليه .

والملخص أنا نقول بجوازِ تأثيرِ العين فى الأجسامِ بالأسقام والأضرارِ ووجود ذلك بخلق الله تعالى لورود النصّ بذلك ولا مانع منه عقلاً ولا يَستلزم محالاً ، والله تعالى أعلم .

وكذلك قد وَرَد النصّ فى بعضِ الأحاديثِ الآحادية أنّ الطاعون من وَخز الجنّ ، والذى يقوله الأطباء : إنّ مَرَض الطاعون من فسادِ الدم الناشىء من فساد الهواء .

فنقول : إذا تحقق ما يقوله الأطباء يمكن أن يقال : إنّ السبب الأصلى فى الطاعون هو تسليط الله تعالى الجنّ على بنى آدم بإفسادِ هوائهم ودمهم فيتولد عن ذلك تلك الغدد الطاعونية ، فالنصّ الشرعى أخبر بالسبب الأصلى وكُنى عنه بوخز الجنِ ، والأطباء اطّلعوا على السّبب الأخير فقالوا بما اطّلعوا عليه ، ولا إشكال فى ذلك ، والله أعلم .

وإن قيل جاء فى حديثٍ آحادىّ أنه عليه السلام قال : « لا يُورِدن ذو عاهةٍ على مُصِحٍ » ، وقال : « فِرّ من المجزومِ فِرارك من الأسد » ، وجاء فى حديث آخر أنه عليه السلام قال « لا عَدوى » ، فما التوفيقَ بينهما ؟ قلنا من المعلوم أنّ اعتقاد أهل الإسلام أنه لا تأثير لشىءٍ بطبعه ، بل كلُ أثر فهو بخلقِ الله تعالى ، وإنما قد أوجد

الله أسباباً عادية للآثار ، والله قادر على تخلف تلك الآثار عن أسبابها وأن العمر محتوم لا يزيد ولا ينقص ، ولا يصيب الإنسان إلا ما قدر عليه ، فلا يجوز للإنسان أن يعتقد أن المرض الفلاني يؤثر بطبعه ويعدي غير صاحبه ، وأن الإنسان قد يعدى بالمرض ويموت قبل أجله الذي قدره الله له . إذا تقرر ذلك فنقول : يمكن والله أعلم بمراد رسوله - أن المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : «لا عدوى» أنه لا يجوز اعتقاد العدوى بتأثير الأمراض بطبعها وإماتة الإنسان قبل أجله ، ولكن قد توجد في بعض الأمراض مثل الجذام والجدري والسل وأمثال ذلك رائحة كريهة ومادة سامة تنفصل من صاحبها ربما تكون سبباً عادياً لحدوث المرض فيمن يخالطه ويقاربه فيمكن حينئذ - والله أعلم - أن يكون هذا هو المعنى الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله «لا يوردن ذو عاهة على مصح» وقوله : «فر من المجذوم فرارك من الأسد» فكما أن شدة البرد وشدة الحرارة والتخمة وأمثال ذلك قد تكون سبباً للمرض كذلك تلك الرائحة الخبيثة والمادة السامة التي تنفصل من المريض قد تكون سبباً عادياً لمرض الصحيح المخالط له ، فإذا تجنب المرء أصحاب تلك الأمراض تحاشياً عن الأسباب العادية مع اعتقاده أن تلك الأمراض ليست مؤثرة بطبعها ، وأن تحاشيه لا يكون مانعاً لقدر الله تعالى ، ولا مطيلاً له عمراً فلا مانع من ذلك التحاشي مع مراعاة تلك الشروط لصحة الاعتقاد ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم في الطاعون : «إذا كان في البلد الذي أنتم فيه فلا تخرجوا منه» وقال أيضاً : «إذا كان في بلد فلا تدخلوه» قال بعض العلماء

يريد بقوله : « لا تخرجوا منه » إذا كان فيه كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم ، ويريد بقوله : « وإذا كان فى بلد فلا تدخلوه » أن مقامكم فى البلد الذى لا طاعون فيه أسكن لأنفسكم وأطيب لعيشكم ، ومع ذلك لا مانع للإنسان أن يخالط أصحاب الأمراض اتكالا على الله وثقة به تعالى ، لأن حصول الضرر بمخالطتهم غير مقطوع به ، وقد ورد « أنه عليه الصلاة والسلام أكل مع مجذوم فى إناء واحد وقال ثقة بالله » .

فبالتأمل فى هذا المقام يظهر التوفيق بين الأحاديث الشريفة ، ويعلم اعتقاد المسلمين فى مسألة العدوى ، والله تعالى أعلم .

وإن قيل : قد ورد فى حديث آحادى ما مفاده أن الله تعالى قد جعل ملكا موكلا بعروق الأرض فإذا أراد الله زلزلة جهة من الأرض أمر ذلك الملك فحرك عرق تلك الجهة فتحدث فيها الزلزلة ، والفلاسفة يقولون : إن الزلزلة تحدث من احتباس أبخرة أو مياه فى جوف الأرض وتنضغط بالحرارة ، وليس لها منفذ إلى ظاهر الأرض فيحدث عنها تلك الحركة العنيفة المسماة بالزلزلة . قلنا : الذى ورد فى الحديث لا مانع منه عقلا ، ولكن إذا ثبت بالدليل القاطع ما يقوله الفلاسفة يمكن تأويل ذلك الحديث بأن الله تعالى جعل ذلك الملك موكلا بتدبير الأبخرة والمياه التى فى جوف الأرض وقد كنى فى الحديث عن ذلك بأنه موكل بعروق الأرض ، فإذا أراد الله تعالى زلزلة جهة أمر ذلك الملك فسلط الأبخرة والمياه وضغطها بالحرارة فى جوف تلك الجهة فتحصل الزلزلة ، فعبر عن

ذلك فى الحديث بأنه يحرك عرق تلك الجهة ، ولا مانع من الكناية لصعوبة الفهم على العامة أن الأبخرة تحرك الأرض العظيمة ، والله تعالى أعلم .

إن قيل : قد توجد آثار فى بعض الكتب فى كبر أجسام المتقدمين تحتوى على مبالغات يستبعدها العقل ، وهى وإن لم تكن مستحيلة عقلا لكن قد اكتشف الباحثون عن الآثار الأرضية على أجسام محنطة من تاريخ أربعة آلاف سنة فوجدوها مثل أجسام أهل هذا الزمان ، فما تقولون فى ذلك ؟ قلنا : إن الذى ثبت فى هذا الباب أن الله تعالى ذكر من قبلنا ، فقال (كانوا أشد منكم قوة) وقال عن طالوت : (وزاده بسطة فى العلم والجسم) وقال فى تقريع بعض المتقدمين (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) وكل ذلك لا إشكال فيه ولا يعارضه اكتشاف ولا غيره وأما ما شاع من قصة عوج بن عنق والمبالغة فى كبر جسمه ، وكذلك ما ينقل أن آدم عليه السلام كان رأسه يصل السحاب والسماء يحاكها فاعتراه الصلع من ذلك ، فقد قال الإمام ابن قتيبة فى شرح الأحاديث المشكلة : إن هذا شىء لم يأت به كتاب ، ولا ثقة ، وليس له إسناد ، وقال الإمام ابن فورك فى شرح الأحاديث المتشابهة عن الروايات فى طول آدم وقامته : إنها مما لا يوثق به ، إذ ليس فى ذلك خبر صحيح ولم يثبت أنه قد كانت خلقة آدم على خلاف هذه الخلقة عن الحد الزائد الذى يخرج عن المعهود من متعارف خلق البشر نقول : لكن يعارض كلام ابن فورك ما جاء فى حديث البخارى

الصحيح من أن طول آدم كان ستين ذراعا ، وأنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، فالتحقيق أنه على فرض ثبوت أحاديث فى كبر أجسام المتقدمين فيمكن جعلها على أنهم كانوا أكبر أجساما من أهل هذه الأزمنة بما هو خال عن المبالغة كالستين ذراعا فى خلق آدم ، وأنه من المحتمل أن الأجسام أخذت تصغر فى أزمنة متطاولة لأسباب عادية حتى بلغت مقدار هذه الأجسام المعروفة الآن ، والذى اكتشفه الباحثون عن الآثار الأرضية إنما هو أجسام وجدت بعد أن وصلت الأجسام فى الصغر إلى هذا القدر ، وما تعنيه الأحاديث التى تفرض صحتها هو فى أجسام أهل أزمنة قديمة جدا ، ومثل هذا يقال فى طول أعمار المتقدمين ، فإنه قد ورد فى القرآن أن نوحا لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وورد فى الأحاديث أن آدم عليه السلام عاش ألف سنة ، وهذا أمر ممكن عقلا لا استحالة فيه ، ومن الجائز أن أعمار البشر كانت تطول ثم أخذت تتناقص كما تناقصت أجسامهم حتى بلغت هذا الحد المعلوم ، والله تعالى أعلم .

الخاتمة

نسأل الله حسن الخاتمه

اعلم أنه يجب على المسلمين شرعاً نصب إمام يقوم بإقامة الحدود وسد الثغور ، وتجهيز الجيوش ، وأخذ الصدقات وقهر المتغلبة ، والمتلصصة ، وقطاع الطريق ، وتزويج الصغار والصغائر الذين لا أولياء لهم ، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد ، وقبول الشهادات القائمة على الحقوق ، وإقامة الجمع ، والأعياد ، ولا يتم جميع ذلك بين المسلمين إلا بإمام يرجعون إليه فى أمورهم : يدرأ المفاسد ، ويحفظ المصالح ، ويمنع مما تتسارع إليه الطباع ، وتتنازع عليه الأطماع ، يعول الناس عليه ، ويصدرون عن رأيه على مقتضى أمره ونهيه ، وقد أجمعت الصحابة رضى الله تعالى عنهم على نصب الإمام بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه « لابد لهذا الأمر ممن يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم ، فقالوا من كل جانب : صدقت صدقت ، ولم يقل أحد منهم لا حاجة بنا إلى إمام ، ويجب طاعة الإمام على جميع الرعايا ظاهراً وباطناً فيما لا يخالف الشرع الشريف لقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وهم العلماء ، والأمراء ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : من أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى ، وفى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن

يطع الأمير فقد أطاعني ، وإنما الإمام جُنّة يقاتَل من ورائه ، ويتقى به » .

ومما ينبغي نصرة الإمام على أعداء الدّين والمفسدين ومحبته ونصحه والدعاءَ له بالصلاح والتوفيق والرشاد ، والنصر والسداد فان في صلاحه صلاحَ الأمة ، وقد قال بعض السلف ما معناه : لو أعطيتُ من الله دعوةً صالحة لجعلتُها في الخليفة .

نسألك اللهم ونتوسّل إليك بعظمة ذاتك العليّة ، وصفاتك السّميّة ، وبأسمائك السنيّة ، وبروحانية سيدنا محمد خير البرية ، أن تحفَظ وتنصر وتؤيّد وتوفق حضرة مولانا أمير المؤمنين ، وخليفة رسول ربّ العالمين ، مولانا السلطان الأعظم ، والخاقان الأفخم ، سلطان سلاطين العرَب والعجَم ، وظلّ الله على صنوف الأمم ، السلطان ، ابن السلطان ، السلطان الغازى (عبد الحميد خان) ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان ، ابن السلطان الغازى محمود خان : أيّد الله خلافته إلى آخر الدوران ، فهو الحامى حوذة المُلك والدين ، والناهض بهذه الأمة إلى أسمى شرَف مكين ، وإن من حسنات عصره السعيد ، جمع هذا الكتاب المسمّى (بالحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية) إذ هو طبق رضائه العالى ، وأثر إحسانه المتّوالى ، جعله الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم ، ووسيلة للفوز بجنات النعيم ، اللهم آمين .

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيّبين الطاهرين ، والحمد لله رب العالمين ، آمين .

فهرست